الأدب والإسلام
وأعلام الأدب الإسلامي

تأليف
سعيد الأعظمي الندوي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الفردوس، لكناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م

الكتاب	:	**الأدب والإسلام**
المؤلف	:	**سعيد الأعظمي الندوي**
النسخة	:	١٠٠٠
عدد الصفحات	:	٢٢٠
ثمن النسخة	:	١٥٠
الناشر	:	**مكتبة الفردوس، لكناؤ (الهند)**

يطلب الكتاب من:

١. المكتبة الندوية، ندوة العلماء، لكناؤ
٢. مكتبة إحسان، مكارم نغر، لكناؤ
٣. مكتبة الشباب، شارع ندوة، لكناؤ

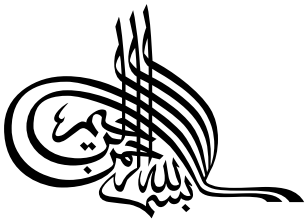
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ ❖ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ❖

خَلَقَ الإِنسان * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الرحمن ،الآية: ١–٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فهذه مجموعة كتابات أدبية حول الأدب والإسلام، نُشرت في مجلة البعث الإسلامي، ندوة العلماء، لكناؤ، في مناسبات مختلفة، تتحدث هذه المقالات عن أدب الذكر والدعاء، والأدب والإيمان، والأدب الإسلامي، والأدب الأثيم، وأدب النثر العربي بعد الحرب العالمية.

ولاشك أن هذه الموضوعات لها صلة بالحياة والكون والإنسان، وهي تترجم عن غاية الإنسان في هذا الكون.

وها هو تأثير الأدب والبيان في حياة الإنسان، يعتقد الإنسان أن للأشياء المادية تأثيرًا وقوةً في إنجاز عمل وإكماله.

لكن الواقع يصدق أن الكلمات والتعبيرات تحمل تأثيرًا سحريًا، وقوةً وجاذبيةً لا تعادلها قوة أخرى، وقد أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرًا. (سنن أبي داؤد: ٥٠٠٧)

إن فكرة الغرب نحو الأدب هي التسلية والترفيه، فإنه يجمع جميع الوسائل لإسعاد الإنسان في هذه الدنيا، ولا يعتقد شيئًا عن الآخرة، فتوجد لديه نظرية الأدب للأدب، لا الأدب للحياة.

لكن الإسلام يركز على نظرية الأدب البنّاء المؤثر في الحياة والمجتمع، وقد قاد هذه الفكرة شيخنا وأستاذنا الإمام الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (مؤسس ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية سابقا)، فكان رائدًا كبيرًا من رُواد الأدب الإسلامي، إنه استخرج النصوص الأدبية من ذخائر التراث الإسلامي، وعرضها أمام المعنيين بها، فدرسوها وعرفوا قيمتها، كما قام بتعريف عدد من الأدباء الإسلاميين الذين عُرفوا بكتاباتهم ودراساتهم الدينية.

وكنت ممن تتلمذت على شيخنا وإمامنا السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، فأعجبت بهذه الفكرة السديدة، وكتبت حولها وحول رجالها كلمات ذكرت فيها اتجاهات أدبية وآراء إيجابية للأدب الإسلامي.

وكانت هذه المقالات منشورة في مجلة "البعث الإسلامي" قام بجمعها وتدوينها في هذه المجموعة الأخ الأستاذ الدكتور محمد فرمان الندوي، فله الشكر والامتنان.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا الجهد الأدبي لابتغاء وجهه الكريم.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

كتبها

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

١٦/٢/١٤٤٥هـ

٤/٩/٢٠٢٣م

الباب الأول

الأدب والإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أدب الدعاء والذكر
والرسول عليه الصلاة والسلام(*)

إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته أكبر وأغلى وأخصب زاد، لكل من يريد أن يبني حياته على أسس سليمة من العقيدة والإيمان والعمل والسلوك، ومما لا مراء فيه أننا لمطالبون كجزء من هذه الأمة العظيمة أن ندرس جميع الجوانب التي تحملها هذه السيرة النبوية الطيبة المشرقة، لكي نستنير بها ما أظلم علينا من آفاق الحياة.

ومن بين هذه الجوانب المشرقة جانب الدعاء الذي شغل قلب النبي صلى الله عليه وسلم وفكره في كل حين وآن، ذلك أن الدعاء جزء مهم للعبودية الخالصة، وعلامة للاطراح على عتبة المعبود المسجود، وثقة في رحمته ورأفته التي تشمل جميع عباده المؤمنين بوجه عام، لذلك إن الدعاء إنما يُعتبر من أعظم الوسائل التي يجب الأخذ بها والمحافظة عليها في كل حين وآن، ولاسيما عند ما تشتد الكروب وتتأزم الأمور، وتتوالى البلايا والفتن، وتستحكم حلقات المحن، فإن دعوات النبي صلى الله عليه وسلم كلها مسجّلة معلومة لكل مناسبة ولكل حال، سواء في حال الشدة والأزمة أو في حال البهجة والنعمة، فإن

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٣، العدد: ٩، جمادى الثانية: ١٤٠٩هـ.

النبي صلى الله عليه وسلم كان يلوذ بالدعاء، ويلتجيء إلى التضرع إلى الله تبارك وتعالى عند كل نازلة وفي كل مناسبة، ولذلك فإن دعاءه صلى الله عليه وسلم يُعتبر من أقوى الآداب العالمية وأقربها إلى الواقع، إنه يُصوِّر ملامح العبودية بأوضح وأجمل تصوير لا يقدر على ذلك ريشة فنان أوقلم كاتب وأديب مهما كان بارعاً.

إن الدعاء ليس معناه إلا أن يتصل العبد بالله تعالى اتصالا وثيقاَ، ويؤمن إيماناً قوياً بأنه هو الذي يخلق كل شئي، هو الذي يخلق الخير والشر، ويبتلي بالشدة والضراء، ويمنح نعمة الرخاء والسراء، إن الدعاء يعني أن يمد العبد يد السؤال إلى الله تعالى بحاجاته ومطالبه، وهو عند ما يقبل في أموره إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتبره مصدر كل خير، ومنبع كل حسنة، وحينما يلتفت المسلم إلى الخالق سبحانه في الشدائد، ويتأكد أنه هو كاشف الكروب، ودافع الشدائد ومزيل البلايا والمحن أقبلت عليه رحمته تملأ قلبه بالهدوء والطمأنينة، وتضفي عليه لباساً من السعادة والسرور، فإذا به يشعر بأن نصرة الله رفيقه، ويد الله شريكه، وتنزل عليه السكينة والرحمة.

لقد كان رسول صلى الله عليه وسلم أكمل خلق الله اتصالاً بالله تبارك وتعالى عن طريق أدب الدعاء والذكر، بل كان كلامه كله ذكراً، وفكره كله عبراً، فكان يعلِّم أصحابه رضي الله عنهم أن يكونوا على اتصال دائم بالله تعالى لدى كل عمل ونشاط، وعند كل مناسبة ومنافسة، وفي كل حين وحال، فقد كان من أدب دعائه إذا أخذ مضجعه أن يقول: اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك (صحيح مسلم، باب ما يقول عند النوم وأخذ

المضجع)، وكان إذا استيقظ من الليل يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب (رواه أبو داود)، وكان إذا استيقظ من النوم يقول: الحمد الله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور (رواه الشيخان).

ولقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الدعاء مخ العبادة (رواه الترمذي)، وقال: الدعاء سلاح المؤمن، وقد أخبره الله تعالى بأنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه، فقال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (سورة البقرة، الآية: ١٨٦)، وقال تعالى في موضع آخر من كتابه وهويأمر بالدعاء ويعد بالاستجابة، ويهدد المستكبرين عن عبادته بدخول جهنم داخرين فيقول: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (سورة غافرالآية: ٦٠).

ولا شك فإن الدعاء هو العبادة كما قد أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم فيما رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء هو العبادة، فالا ستكبار عن الدعاء سبب لدخول جهنم، وأمر الله سبحانه بالدعاء أيضاً فقال: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (سورة الأعراف الآية: ٥٥).

وعن ابن مسعود: قال تعالى إشارة إلى أنه يجيب المضطر إذا دعاه: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ" (سورة النمل الآية: ٦٢).

وطالما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الله تعالى في دعائه حسنة الدنيا والآخرة والوقاية من النار، فعن أنس رضي الله عنه

قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (رواه الشيخان).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى (رواه مسلم)، وعن ابن عمر وابن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم مصرِّف القلوب! صرِّف قلوبنا على طاعتك (رواه مسلم)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من الليل يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك ذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب (رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها)، وعن عمروبن عبسة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة، فكُن (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كبير الاهتمام بآداب القيام في الليل والمناجاة مع ربه ساعات طويلة، وقد روت كتب السنة أدعيةً كثيرة لما كان يدعو بها ربه في جوف الليل، ونذكر هنا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق ووعدك الحق وقولك حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفرلي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وماأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت (متفق عليه).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قُمتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم قال في سجوده مثل ذلك، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من الفراش فالتمسه فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهويقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك (رواه مسلم)، وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الصلاة فيقول: اللهم إني أعوذبك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال: وإن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف.

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم،

لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم (متفق عليه)، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر قال: يا حي يا قيوم بر حمتك أستغيث، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ماأصاب عبداً همّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك أوأنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلاَّ أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً. (أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه).

وعند ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي العدو، أو خاف ذا سلطان يدعوالله سبحانه ويطلب منه العون والنصر ويتعوذ من شره، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قومًا قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذبك من شرورهم[1]، وكان يقول عند لقاء العدو: اللهم أنت عضدي وأنت نصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل.

وفيما إذا عرض الشيطان لأحد فليقل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه، لقول الله عزوجل: "وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (سورة فصلت، الآية: ٣٦). وإذا أنعم الله على العبد بنعمة فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

---

[1] أخرجه أبو داود والنسائي.

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فلا يرى فيها آفة دون الموت، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى ما يسره قال: الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يسؤه قال: الحمد الله على كل حال.

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم ما يدعو به العبد فيما إذا كان عليه الدين، فعن علي رضي الله عنه أن مكاتباً جاء ه فقال له: إني عجزت عن كتابتي فأعِنّي، قال: ألا أعلمُك كُليمات علّمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لوكان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك، قل: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني عن حرامك بفضلك عمن سواك[١]، وإذا عصفت الريح كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: اللهم إني أسألك خير ها وخير مافيها وخيرما أرسلت به، وأعوذبك من شرها وشر ما فيها وشرما أرسلت به[٢]، وإذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك[٣].

وكان إذا رأى الهلال يقول: الله أكبر، اللهم أهِلّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله[٤]، وكان إذا أفطر صيامه يقول: اللهم لك صُمنا وعلى رزقك

---

[١] رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن.

[٢] رواه مسلم.

[٣] أخرجه الترمذ ي عن عبد الله بن عمر.

[٤] أخرجه الدارمي عن عبد الله بن عمرو.

أفطرنا، فتقبل منا، إنك أنت السميع العليم[١].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً واستوى على بعيره كبر ثلاثا، ثم قال: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" (سورة الزخرف، الآيتان: ١٣ - ١٤)، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع من السفر قالهن، وزاد فيهن (آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون). (رواه مسلم عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما)

وحدث صهيب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها! اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. (رواه النسائي وغيره)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرّك وشرما فيك وشر ما خلق فيك وشرما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد[٢].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاماً يقول: بسم الله، وإذا فرغ من طعامه قال: اللهم أطعمت وأسقيت وأغنيت وأفنيت

---

[١] رواه ابن عباس رضي الله عنهما.

[٢] أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت (رواه النسائي)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من طعامه قال: الحمد للّه الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين[١]، وإذا أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أحد دعاه على الطعام، فلما فرغ من الطعام دعا للمضيف وطلب له من الله البركة والقبول، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، فجاء بخبز وزيت فأكل ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: أفطر عند كم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التثاؤب والعطاس: إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، وقال: إذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله، وأما التثاؤب فإنما هومن الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاء ب ضحك منه الشيطان[٣].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى السوق قال: بسم الله، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشرما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أوصفقة خاسرة[٤].

وإذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وجهه في المرآة قال:

---

[١] رواه أبو داود والترمذي.

[٢] رواه أبو داود.

[٣] رواه البخاري عن أبي هريره رضي الله عنه.

[٤] أخرجه الترمذي.

الحمد للّه الذي سوّى خلقي فعدله، وكرم صورة وجهي فحسنها، وجعلني من المسلمين[١].

ومن الأدعية الجامعة التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه أبوموسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذا الدعاء: اللهم اغفرلي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفرلي جدي وهزلي وخطأي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفرلي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شئي قدير[٢]، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها، وكان يتعوذ من سيئ الأسقام والأمراض، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسيئ الأسقام، وكان يتعوذ من الجوع والخيانة، وجاء فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه: اللهم إني أعوذبك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أسألك موجبات رحمتك

---

[١] رواه أنس رضي الله عنه.

[٢] متفق عليه.

وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار[١].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم مع ذلك شديد التمسك بالأدعية التي جاء ت في القرآن، يدعو بها ربه ويخشع بها قلبه، ويحافظ عليها في كل حين، فقد كان عبداً لربه خاشعاً في معنى الكلمة، وما من دعاء دعا به أوحدث عنه إلا وتتجلى فيه العبودية بأروع مظاهرها، وأكمل معانيها، انظروا كيف يدعو ربه وقد خذله القوم في الطائف وتناولوه بالمكروه والأذى: اللهم إليك أشكوضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، أنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك، ومما دعا به في عرفة: اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعرف سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شئي من أمري، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير، الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلَّ لك جسمه، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً، وكن لي رؤوفاً رحيما، يا خير المسؤلين، ويا خير المعطين.

هذا عرض سريع. وليس استيعابًا لأدب الذكر الذي عاشه النبي صلى الله عليه وسلم في لحظات حياته واعتنى به اعتناء ا كبيراً، ذلك

---

[١] رواه الحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

لأنه كان يعتبر نفسه عبداً للّه ومعلماً للناس أرسله ربه إلى هذه الأمة، فلم يترك أي ساعة من الحياة إلا وقد تناولها بالاهتمام، وأكد أن الإنسان المسلم عبد قبل كل شئي، فلا بد من أن لا ينسى عبوديته أمام ربه في أي حال، وأن يكون على ذكردائم من الله تعالى في ليله ونهاره وصباحه ومسائه، وفي سرائه وضرائه، ومحنته ور خائه، وفي بيته ومسجده، وفي أعماله ووظائفه، ومع أهله وأولاده وأصحابه وزملائه، وفي داخل حياته وخارجها، وفي صحته ومرضه وفي سفره وحضره وفي كل لمحة من لمحات حياته، إنه مهَّد الطريق للاتصال بالله تعالى اتصالاً مباشراً يبوح فيه الإنسان بأسراره إليه، ويبث أشواقه وآماله، وآلامه وأحلامه إلى ربه، يناجيه طوراً، ويبتهل إليه طوراً آخر، يخشع له تارة، ويتضرع أمامه أخرى، وهكذا يثبت عبوديته له، وخشوعه إليه، وخنوعه أمام حكمه وقضائه.

وما أحلى لنا، ونحن هنا في آخر حديث من أدب النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء أن نختم الكلام بأحسن ما دعا به ربه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون الذين يتلون كتاب الله تعالى، فنقرأ قول الله تعالى: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" (سورة آل عمران، الآية: ٨)، وندعوالله سبحانه فنقول: "رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (سورة الحشر، الآية: ١٠)، وصلي الله تعالى على خير خلقه محمد وعلي آله وصحبه وبارك وسلم.

الأدب والإيمان
نعمة من الله على الإنسان(*)

الأدب أصناف وألوان، له فنون ساحرة، وأساليب بارعة في التعبير عن الحياة وحاجات الإنسان وشئون الكون، وقد وضعه الناس في أهداف سامية، من البناء والهدم، بناء الإنسان الصالح، وهدم العوامل الفاسدة، وأسيئ استعماله في فترات عديدة من التاريخ، يوم لم يكن للدين وازع، ولا للضمير رادع، ولم تكن للخير والشر مقاييس معلومة، فاستخدم الأدب في سلبيات خالصة، في إثارة الأحقاد والضغائن، في الاعتزار بالآباء والأنساب، وفي بناء صروح المجد على أنقاض الكرامة الإنسانية، وإن الأدب الجاهلي خير شاهد على هذا الواقع، فقد كان إبراز المفاخر القبلية وإسدال الستارعلى المثالب النفسية والخلقية، الأدب قوة عظيمة في رفع قوم وخفض قوم آخرين، وكان وسيلةً للتلاعب بالشرف، والفضيلة، وذريعةً للانتقام وتبرير العنف، وإثارة العواطف ضد أعضاء الأسر الإنسانية.

إن سليقة الجاهليين الأدبية رفعت مكانتهم في الأدب والبيان، وبلغت بهم إلى درجة عالية من قوة البلاغة والتعبير، ولكنهم لم يهتدوا الطريق الطبيعي لاستعمال هذا الأدب، ولا أوحت إليهم طبيعتهم البدوية الغليظة وظيفة الأدب ودوره في الحياة الإنسانية وفي بناء الإنسان

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٦، العدد: ٨، ربيع الثاني: ١٤١٢هـ.

والكون، فاستخدموه لأغراض تافهة وفي تظاهرات خاطئة تتجلى في الشعرالجاهلي بغاية من الوضوح، ومما هو معلوم أن هذه القوة الأدبية العظيمة لم تكن نعمةً صنعوها بأنفسهم أوأتت إليهم عفواً من غير سبب، غير أن العقلية الجاهلية ما كانت على المستوى الذي تدرك فيه مثل هذه الحقائق، ولكن خالق هذه النعمة العظيمة للأدب والبلاغة ومانحها المطلق إياهم، أراد أن لا تتعطل أو تصرف في غير وجهها، فقرر أن تنضم هذه النعمة البلاغية والقوة البيانية إلى نعمة الإسلام العقدية وقوته الإيمانية.

ومن ثم تم اقتران نعمة الأدب بنعمة الإيمان، وأنزل الله تعالى القرآن بلسان عربي مبين ليكون للعالمين آية تجمع بين الأدب والإيمان، وتمثل دور اللسان الذي يعبِّر عما في القلب من الإيمان والعقيدة والحب والولاء، وما في النفس من أفكار وعلم، وما لديها من أهواء وشهوات، وكلما اقترن الإيجاب بالسلب أتى بما يدهش العقول، ويحرك النفوس ويثير أوتار القلوب، ومع نزول القرآن الكريم باللغة العربية وعلى أرقى مستواها وبتمثيله ذلك الأدب الرفيع والبيان البليغ، تعرف المجتمع العربي الجاهلي الذي كان يعيش غروراً أدبياً وعصبية لغوية وبيانية، إلى أدب القرآن الكريم الذي فاق مستواه الأدبي اللغوي بدرجات وبلغ بأدبه وأسلوبه إلى القمة العالية التي كانت وراء إدراكه وشعوره وغروره وعصبيته، فما لبث هؤلاء الجاهليون أن رأوا أسلوباً أدبياً بعيداً عن كل خلية ضعف، واطلعوا على أدب ساحر يمس أوتار القلوب، ويدعوالناس إلى الفضيلة وإلى السمو الخلقي والروحي، ويحذرهم من الرذائل والسفالات والمنكرات، وقرأوا كتاب الله، فما قرأوا إلا بياناً عربياً عذباً واضحاً،

ودعوة صريحة إلى التمسك بمكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، قرأوا كتاب الله، فما وجدوا فيه إلا ما لم يكن منهم على بال، وذلك هو تكريم الإنسان، ورفع قيمته وبيان نفسيته وخباياها: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" [سورة الإسراء: ٧٠].

أدهشهم هذا الأسلوب الأدبي الفريد وملأ نفوسهم بالهيبة والخشية، وخاصة موضوع الإنسان الذي وجه إليه القرآن خطابه، ونوعه بحيث يأخذ بمجامع القلوب وينزل إلى أعماق النفوس، ويهز المشاعر والأحاسيس، ويحرك مكامن الغرور ومخابيء الشرور والأهواء، ويكشف حاله في ضوء البرهان ويصوره بأبلغ وأصدق تصوير، لقد كان خطابه للإنسان في غاية من الصراحة والتأثير والواقعية، ذلك لكي يطلع على حقيقته ويعثر على خباياه، ويدرك قيمته، ويعرف ربه، ويفكر في آياته، ويتدبر في حكمه ورحماته، ويعلم علم اليقين بأنه أضعف شيئ في الوجود من غير استناد إلى قوة الإيمان، وأقوى من كل شئي في الكون ما كان يتصل بالله ويثق فيه ويعيش معه، وما كانت حياة تتصل بكهرباء الإيمان وطاقة العقيدة.

لفت أنظارهم إلى ما كان عليه الإنسان، وكيف تم خلقه، وكيف هداه السبيل، فإما إلى الشكر، أو إلى الكفر، وما ذا أعده الله تعالى للكافر من عذاب، وما هيأه للمؤمن من جنات ونعيم، قرأوا كل ذلك بأسلوب، ليس من وسع أي أديب مهما كان كبيراً وعلى مكانة عالية من البيان والبلاغة، فلم يكن منهم إلا أن يخضعوا لهذا الأدب الرفيع، والبيان البليغ، وهذا في سورة الإنسان: "هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ

نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا" [سورة الإنسان: ١–٢٢].

ومثل ذلك خوطب الإنسان في سورة الانفطار، وأسلوبه يختلف عن الأسلوب الأول الذي يتميز بالدقة والتأثير وإثارة عواطف الشكر والتقدير، ولكن هذا النمط التوجيهي هنا شيئ كثير من الفخامة، والإنذار، وتوجيه السؤال إلى الإنسان الذي خلقه فسوَّاه فعدله، ما الذي غره بذلك الرب الكريم، فيه إنذار إلى من يكذب بيوم الدين، وموازنة بين جزاء الأبرار والفجار، ولاشك فإن ذلك دعاهم إلى التفكير في الموضوع الذي أثاره القرآن ووجههم إلى العودة إلى الإيمان والاعتقاد بالآخرة.

"يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ

فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ" [سورة الانفطار: ١—١٩].

أما الآيات التي بدئ بها الوحي، فهي تشتمل على معاني القراءة والكتابة والعلم، وتعيين مكانة الإنسان العالية بين جميع الخلق، وهي تشرح له مبدأه ومصيره، وتفسر نفسيته وعقليته من الهداية والغواية ومن الطغيان والخضوع، كل ذلك في أدب عظيم وبيان بليغ، ودعوة مثيرة وتوجيه رباني كريم، انظروا إلى مدى تأثير هذا الأسلوب الدعوي التربوي الرائع في نفس القارئ.

"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ الله يَرَى كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" [سورة العلق: ١—١٩].

وفي هذه السورة ذكر الناصية، ثم تنكيرها، ووصفها بصفتين نكرتين (ناصية كاذبة خاطئة)، ولقد ذهب المفسرون في تفسير ذلك إلى أن المراد بها: صاحب الناصية كاذب فاجر، كثير الذنوب والإجرام، وقال بعضهم: وصفها بالكذب والخطيئة مجاز، والخاطئ الذي يتعمد الخطأ، ولكن المخطيء الذي يفعل الخطأ بدون قصد.

ولكن العلم الحديث كشف عن هذا السر، ولم تعد هناك حاجة إلى التأويل، وذلك أن في ناصية الإنسان قوة مدركة ذات حس، وهي التي تبعث الإنسان على ارتكاب الكذب والخطأ بالتعمد، فلما كانت الناصية هي المسئولة عن تعمد صاحبها بالكذب والخطيئة، وصفها بالكاذبة الخاطئة.

وفي هذا من قوة الأدب وصدق الأسلوب وبيان الواقع ما يجعل الأديب العربي الجاهلي يقدم له ضريبة الإعجاب والاعتراف بغاية من الرحابة، ويحدث في نفسه من التأثير والتقدير ما لا يعلم مداه إلا الله، لقد كان هذا الأسلوب الدعوي المتوازن العميق مما اختاره الله تعالى في كتابه العظيم لتوجيه الإنسان إلى واقعه، ومكانته وقيمته، ثم التفكير فيما يكرمه بالسعادة والنجاح والعزة والتوفيق، ومن الطبيعي أن يكون هذا الأدب الدعوي في التوجيه الإنساني ذا قيمة وأهمية كبيرتين لدى الإنسان الأديب، سواء كان العربي الجاهلي أو العربي المسلم أوالعجمي المسلم المعاصر.

إن الإنسان هو المخاطب في هذا الكون، فهو أحق بالتوجيه والتربية والدعوة والإصلاح من كل شيئ، وهوأجدر بالخطاب من غيره، ومن هنالك كان كتاب الله تعالى هو الموجه الوحيد للإنسان بلسان عربي مبين، وإليه يرجع كل فضل واعتراف في إيجاد أسلوب الدعوة والتربية، ولفت أنظار المجتمعات الجاهلية القديمة والحديثة إلى أن الإسلام إنما يرفع مستوى الإنسان في جميع أعماله وأفكاره، ويعتبره إنسان الدعوة والهداية، وإنسان الأدب والتربية، وإنسان العطاء والحب والولاء وإنسان العفة والطهر والأمانة، وبذلك يجمع بين الحسنيين، وينال من ربه السعادتين.

"رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [سورة البقرة: ٢٠١].

كل إنسان في كل ظرف وزمان مسئول عن التدبر في آيات الله تعالى، التي تكمن وراء خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فذلك ما يفتح الطريق إلى الاتصال بالله وتوحيده ويصرفه عن جميع الملابسات والعلائق المادية، ويبعث فيه روح الدعوة إلى الله والهداية إلى طريقه، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، انظروا كيف يشع أدب الدعوة والفكر البليغ في الآيات التالية: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [سورة آل عمران: ١٩٠–١٩١].

٢٨

الدعوة والأدب
صنوان متعاضدان(*)

في العالم المتغير الحديث اليوم كثير من التناقضات الفكرية والتلوثات العقلية التي أوقفت الإنسان المعاصر على أبواب من القلق والحيرة والشقوة، وحملته على الانسحاب من معركة الحياة الجادة، والانزواء إلى ركن ليس له فيه مجال للتفكير في بناء مستقبل هنيئ وسلوكيات إنسانية رفيعة تتكفل له بالسعادة في دنياه، والنجاح في آخرته التي لا مناص له منها.

الدعوة الإسلامية تمنع هذا الإنسان الكريم من التردي فيما لا يغني عنه من الأماني الحقيرة المعسولة، ومن المطامع الدنيوية الدنيئة الموهومة التي تسد عليه الطريق نحوالهدوء النفسي والطمأنينة القلبية، وتهوي به في عاقبة الأمر إلى مهوى سحيق من الهلاك والفناء.

ومعلوم أن الإنسان مهما تمادى للآ مال والأحلام، ومهما تطلع إلى آفا ق بعيدة من السعادة الكاذبة المزورة، لكنه لا يستطيع أن يعيش حياة طبيعية مجردة عن الأهواء والشهوات الرخيصة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، ذلك هو واقع الإنسان المعاصر اليوم من غير شك.

من هنالك كان للدعوة الإسلامية أهميتها الأساسية، فهي التي تُمهد للإ نسان طريق العز والسعادة، وللاتصال بملكوت السماوات

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٧، العدد: ١٠، جمادى الأخرى ورجب ١٤١٣هـ.

والأرض، وتحليه بنعمة الخلافة في الأرض، إلا أن هذه الدعوة لفي أشد حاجة إلى لسان بليغ وفكر رفيع وأدب وحكمة، وذلك هو العامل الأقوى والأكبر الذي يقوم بدور التبليغ والتوجيه والإرشاد، وصرف الإنسان عن طريق الضلال إلى الصراط المستقيم، ومن الغواية إلى الهداية، ولذلك جمع الله سبحانه وتعالى بينهما بغاية من الإعجاز والإيجاز، فقال: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [سورة النحل: ١٢٥] وقال تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" [سورة فصلت: ٣٣–٣٥].

كلما كانت وسيلة الدعوة أقرب إلى الفهم وأوفق للظروف وأنفع للعقول تحققت غاية البلاغ بأحسن وأشمل وجه، وكان ذلك سبباً للإقناع والثقة بكون الدعوة ذات ثمار يانعة جنية، توجه الإنسان إلى مستقبل باسم سعيد.

ولذلك كان الأدب صنواً للدعوة في جميع مراحلها وعضواً متعاضداً لها في كل مرحلة ومع كل أمة وفي كل عصر وجيل.

فكما أن الدعوة لا تنفع من غير الأدب كذلك الأدب لا قيمة بدون الدعوة، ومن هنا يأتي مفهوم الأدب الإسلامي واضحاً جلياً.

فما أجدر الدعاة بأن يكونوا حملة لواء الأدب والحكمة حتى يكون التوفيق حليفهم، والنجاح رائدهم "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" [سورة المطففين: ٢٦].

الأدب الإسلامي الرائد
ووظيفته في بناء الإنسان(*)

هذه الكوكبة الأرضية التي تزدان بأجناس وأنواع كثيرة من الكائنات، ليست إلا آية واحدة من آيات قدرة الله تعالى، والإنسان فيها هو الذي يتمتع بالعقل والذكاء، ويتصرف في هذا الكون بوحي من الله تعالى، فيما يعود نفعه إليه، ويوظف طاقاته في تنظيم الحياة وتدبير الشئون الحيوية، ووضع كل شئي في محله، مما يساعده في البناء والتعمير، وتخطيط المستقبل اللامع، ذلك أن يميز بين الخير والشر، ويعرف قدر كل واحد منهما، ويكون على بينة من دور كل واحد منهما، في الهدم والبناء، وفي السلب والإيجاب.

من هنالك كانت وظيفة الإنسان في هذه الكائنات ذات الأهمية البالغة، كبيرة ودقيقة، وإليه تتجه المسئولية في بيان مواضع الخير والشر، وتبيين مكامن الخطأ والصواب، وفي شرح جميع الوسائل والآلات التي تتكفل له بالسعادة، أو تُدنيه إلى الشقاء، لقد منح الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان العاقل وهذا المخلوق المتميز قوةً كبيرةً نُسميها قوة التعبير والبيان، التي تأتي في الدرجة الثالثة من تعليم القراءة وخلق الإنسان، حيث إن الله تعالى يقول: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" [الرحمن: ١—٤]، ومعلوم أن قوة البيان والتعبير تقوم بالدور الرئيسي في

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٨، العدد: ٨، جمادى الأولى ١٤١٤هـ.

إضفاء لون الهدفية العميقة على حياة الإنسان، ومجهوداته المخلصة التي لها علاقة وطيدة بالعلم، الذي لا تظهر نتائجه من دون وسائل التعبير المتعددة، وهي تتلخص في معظم الأحوال في القلم واللسان، وريشة الفنان، وأحياناً تتحقق بالإشارة والخط وبالعدد والعقد.

بهذه الوسائل البريئة كلها يتمكن الإنسان من بيان أفكاره وآرائه، والتعبير عن تصوراته وخواطره، وعن كل ما يدور في خلده، ويعيش في نفسه من الخوالج والسوانح والمشاعر والأحاسيس، وكل ذلك في سبيل إسعاد الحياة الإنسانية فرديةً وجماعيةً، وإنقاذها من لوثات النفس الشريرة ومكايد الشيطان ومزالق السيئات والشقاء، ولقد نالت هذه الوسائل البريئة في الفترات التي سبقت مجيئ الإسلام من الضيم والظلم ما لا يجهله المطلع الخبير.

فقد كانت اليونان القديمة بحكم فلاسفتها وحكمائها تعتبر مركز الفنون الجميلة والآداب الإنسانية، ولكنها. مع الأسف. ضلت الطريق المستقيم في الاستفاده من هذه الفنون والآداب، في خدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الإنساني الأفضل، وركزت جل عنايتها على تنمية دوافع الجنس والشهوات، في نفوس أعضاء المجتمع اليوناني، وبالتالي المجتمع البشري، كما أنها أطلقت عنانها في تقديم صور مشبوهة للإله والمعاد والعبادة، والأخلاق السليمة والفضائل الإنسانية، ولعبت دوراً شائنًا في مجال العلاقات والعبادات، وإبعاد الشقة بين العبد وإلهه وإيجاد الوسائط بينهما، وتشجيع المنكرات وتحبيبها إلى النفوس.

بذلك كانت لليونان قيادة في مجال الفنون والآداب، خضع أمامها جميع الأوساط العلمية والمجتمعات الإنسانية على المستوى العالمي، وهي تولت الإساءة إلى الآداب والفنون، وأكسبتها سمعة سيئة، ذلك

لأن الأدب أصبح مرادفاً لبيان المفاهيم والتصورات المريضة، مما يتعلق بالأهواء والشهوات، وبإبراز معاني الجنس وكشف العورة، وإثارة العواطف الساقطة في الإنسان، حتى إن الأديب أصبح معناه هو الشخص الذي يمثل التحررية والإباحية والأخلاق السافلة، ويحارب الطهر والنزاهة والعفة والفضيلة لا علاقة له بالدين والفضائل، ولا همة له في علياء الأمور ومواصفات البر والتقوى، التي تشقّ الطريق نحو السعادة الحقيقية، وتربطه بالله تبارك وتعالى.

وكانت الحضارة الغربية التي ليست إلا وليدة الفلسفة اليونانية، ونسخة صادقة مزيدة منقحة لحضارة اليونان والرومان، وأداة مهمة في قلب الحقائق الخلقية وتشويه المفاهيم الإنسانية للهبوط بالإنسان إلى سفاسف الأمور، وصرفه عن الموضوعية الحضارية التي تمثلها حضارة الإسلام، جاء ت الحضارة الغربية بحدها وحديدها وأفكارها ونظراتها، ووجهت سهامها المسمومة نحو العالم الإسلامي ومجتمعات المسلمين، بأشكال منوعة من الثقافة والعلم والأفكار والآداب، وجردت العوامل الحضارية والآداب البريئة عن كل معنى من معاني الحسن والإحسان، وسلبت منها خصائصها التوجيهية، وجوانبها التربوية، فلم تعد الثقافة والعلم والآداب إلا صوراً هزيلة لا تسمن ولا تغني من جوع، وهكذا أساء ت الحضارة الغربية إلى مفاهيم الأدب والفن والجمال والعلم والثقافة، وظن الناس أنها ليست إلا أداةً للهدم والفساد فحسب.

إن هذا المفهوم للأدب كان له رواج وانتشار في كل مكان، فلم يكن الأديب في اعتقاد الناس إلا رجلاً متحرراً لا يتقيد بالدين ولا يلتزم بتعاليم الإسلام، وظل هذا المفهوم يسيطر على العقول، حتى في أوساط العلم والدين، في العصر الحاضر، حيث كان الناس يرون إليه

بنظر شزر، ولا يعتبرونه موضع ثقة في الدين والفضائل، وما كان ذلك إلا نتيجة للانسياق مع فلاسفة اليونان ورؤيتهم نحوالفن والأدب، سواء بالشعور أومن غير شعور، ولو أنهم تأملوا في معنى الأدب ومفاهيمه النزيهة التي أضفاها عليه الإسلام، لما كان منهم هذا الجفاء مع الأدب، ولما نظروا إليه نظرة ازدراء.

ولقد رفع الإسلام قيمة الكلمة الطيبة التي لا تتحقق إلا بالكفاءة الفنية والذوق الأدبي مع السمو الخلقي، مهما اختلفت وسائلها وتعددت أدواتها وتنوعت أشكالها، وهي الكلمة الهادفة التي قامت بدورها المرجو في بناء صرح الإنسانية ورفع منارها في عصر تواطأت فيه قُوى الكفر والطغيان والجاهلية بأوسع معانيها على تدمير الإنسانية، وطمس معالم الأخلاق وهدم مقاييس الفضيلة، يوم نهضت العصبيات على قدم وساق، ورفعت العداوات والحزازات النفسية حواجز الحياء والاحتشام في المجتمعات، ولم ير الإنسان بأساً في قتل أخيه وهتك الأعراض وذبح الأولاد ووأد البنات، يوم لم يتحرج المرء في اقتراف الجرائم وتعاطي المحرمات، ويوم تظاهر الشاعر العربي الجاهلي بشجاعته، واعتز بمراسه في الحروب وانتقامه من الخصم، وتغنى بذلك في قصائد الشعر الطويلة.

ولكن الكلمة الطيبة التي أشاد الله بها قامت بتصحيح مفهوم الأدب، وإزالة المزعومات الجاهلية والعصبيات القبلية من ساحة الأدب والبلاغة: "مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا" [سورة إبراهيم: ٢٤–٢٥]، بهذه الشهادة السماوية والإشادة الربانية ارتفع الأدب إلى قمة عالية من البيان والبلا غة، والعطاء والتأثير، وقام بالتوجيه الخلقي،

والتربية البناءة في جميع مجالات الحياة. التي ازدهرت وأثمرت بالسعادة والطهر والجمال والهدوء، وقدم للعالم نموذجاً مثالياً للإنسان المسلم بسلوكياته وتصرفاته وعلاقاته وعطاءاته الغالية، الذي هو ضالة المجتمعات الإنسانية الحائرة في دياجير التيه والغواية.

وتعاليم الإسلام كلها وتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأحاديثه صورة صادقة للكلمة الطيبة التي مثلها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة ذات الأزهار الجميلة والثمار اليانعة الحلوة. والمناظر البهية الخلابة.

ودعوات النبي صلى الله عليه وسلم التي ناجي بها ربه تبارك وتعالى، وبثَّ عن طريقها أشواقه وآلامه وآماله إليه، إنما هي مثال نادر ورائع للابتهالات والتوجهات المخلصة التي تنبع من قلب المؤمن الصادق. وهي تمثل البلاغة بأروع أشكالها والأدب الرفيع بأسمى معانيه، وتحتوي على جميع الخصائص الفنية والسمات الأدبية والمفاهيم البلاغية، في أسلوب طبيعي وأداء واقعي.

إنها تمثل حياة المسلم الواعي بجميع مناحيها وجوانبها وشئونها وتصرفاتها وأحداثها وأعمالها، وتعلم آداب كل صغير وكبير، ودقيق وجليل، سواء في الليل والنهار، والخلوة والاجتماع، أو في حالة السرور والألم، وكل ذلك في أدب رقيق وبلاغة معجزة وأسلوب جميل وبيان ساحر، وحكمة نادرة، وموعظة حسنة، وعاطفة جياشة وبتأثير غريب.

لذلك فإن الأدب الإسلامي يجمع بين الخصائص الفنية والمواصفات الكلامية وبين جزالة الألفاظ ورقة المعاني، والأساليب الرقيقة والتعابير الجميلة الخلابة، لا تنقصه الفنية والموضوعية، ولا

تعـوزه البلاغـة في التعـبير، والـروح الوجدانيـة والتـأثير، الواقـع الـذي يلمسه كل شخص يتذوق الأدب، ويطلع على الجوانب الأدبية المضيئة في الكلام، ثم إنه يزخر بجميع الأصناف الأدبية والألوان الفنية، من النثر الفني والشعر الموضوعي.

ومن ثم كان مجيئ الإسلام نعمةً على الأدب والبلاغة بمصدريه الأساسيين بوجه خاص، فقد وضع الإسلام تصوراً خاصاً بالأدب، لم يكن الناس يعرفونه من قبل. وقد خلع لباس الأدب على الكلمة الطيبة، والوسائل التعبيرية الأخرى، وتناول كل كلام سبق الإسلام بالإصلاح والتهذيب، وأخضعه للمعايير الأدبية والمقاييس الفنية، لكي يصح أن يسمى ذلك بالأدب الإسلامي الذي يبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، ولولا الأدب الإسلامي الرائد لما نال الإنسان مكانته من القيادة العالمية، ولما تبين موقفه من الحضارات المادية، والنظرات الوضعية والفلسفات المريضة، ولما كانت له وقفة صامدة أمام التحديات الحضارية.

لقد وظّف الإسلام الكلمةَ وما شاكلها من الوسائل التعبيرية الأخرى، في صالح النوع البشري، وبناء الإنسان، وتأهيله لقيادة البشرية، ولتعمير أرض الله تعالى بالقدرات الإنسانية البناءة التي توجه أمة الإسلام إلى وظيفتها الطبيعية التي قدرها الله لها، وأمرها بأدائها بأحسن أسلوب وأجمل طريق، وهي وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أعظمها وظيفة، وما أحلاها مسئولية، ولكنها لا تستغني عن الكلمة الطيبة المؤثرة، ومن الحكمة والموعظة الحسنة التي هي أساس الأدب في الإسلام.

الفكر الإسلامي
وصلته بالأدب والبيان![*]

لا نكاد نتوصل إلى حقائق الفكر الإسلامي وزواياه العملية، ما لم تكن له علاقة بالأدب والبيان، فهما أداة قائمة تعمل في مجال الكشف عن خبايا العلم والمعارف، وأسرار الحياة والكون، وتفسِّر العلاقات بين الإنسان والكائنات الأخرى، وبين الإنسان والإنسان، وبينه وبين ربه العظيم.

هناك مثلاً فكر تعبّديٌّ يتحدث عنه الإسلام، ويؤكد أن الحياة إذا لم تتحلّ بالعبادة، فإنها لا تفي بالغرض المطلوب من خلْقها، ولقد قال الله سبحانه: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" [سورة الذاريات: ٥٦]، فبين أن حياتهما ليست إلا لتحليتها بالعبادة، التي تعم كل عمل من أعمال الإنسان، وتغطي نشاطاته كلها، فما من تحرك وإرادة نحوتلبية نداء القلب أوالجوارح، إلاويجد المرء في ذلك تحقيقاً لمعنى من معاني العبادة، التي لا تستقيم الحياة بدونها، ولا تجد طريقها نحو الفرار إلى الله تعالى، الذي يأخذ عباده بالرحمة والنعمة حالما ينذرون جميع قواهم في سبيل تحقيق العمل التعبدي.

ماذا يعني قوله تعالى، الذي يشمل نقض النفي بلفظ: "إلا"؟ أليس فيه حصر الغاية التي خلق من أجلها الجن والإنس، والتي تبرر

---

[*] مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٤٥، العدد: ١٠، جمادى الثانية ورجب ١٤٢١هـ.

وجود هذين الكائنين في هذا الكون، وهما من أقوى دعائم هذه العبودية التي تربطهما بقانون الخلق والأمر، وما هو إلا تعميم فكرة مراقبة الله سبحانه وتعالى في كل شئي من الحياة، وأنه عليم خبير، وبصير قدير، يعرف النوايا المستورة، والخواطر المكنونة، التي تخطر في القلوب، فهو لا يخفى عليه من ربط مصيره بأمر الله وشريعته، ومن تنسل عن مسئولية الطاعة والامتثال، وتمايل إلى الصور الجوفاء من الحضارة، وألاعيب النفس والشيطان، فقد عهد الله سبحانه إلى بني آدم أن لا يعبدوا الشيطان، ولا يركنوا إلى الذين ظلموا، يقول: "ألم أعهد إليكم يا بني آدم! أن لا تعبدوا إنه لكم عدومبين"، ويقول: "وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ" (سورة هود، الآية: ١١٣).

إذن، فإن عبادة الله تعالى لهي الغاية الحقيقية التي يسعى إلى تحقيقها المسلم، وهي وظيفته الأولى التي تشمل جميع ألوان النشاط العملي الذي يمهد الطريق نحو الله تعالى، وكل عمل من أعمال الإنسان يؤدي إلى مدلول عبادة الله تعالى، من خلال هذه الألوان التي تندرج تحت حقيقة العبادة العظيمة، التي تعتبر حجر الزاوية في هذا الكون الواسع.

وكذلك فكرة الرحمة التي لها مفهوم إسلامي، واسع الأرجاء، ومتعدد الجوانب، إذا ذهبنا نفسره في نطاقه اللامحدود، فلا يسعنا إلا الاعتماد على الأساليب الأدبية والبيانية التي تساعد في شرح معاني الرحمة، وتأثيرها في الحياة والكون، لقد وُصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الرحمة المهداة، وأضفى الله تعالى عليه لباس الرحمة العالية التي تشمل كل شيء في الحياة والكون، وقال بأسلوب الحصر: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" [سورة

الأنبياء: ١٠٧] يعني ذلك أن لا شيء في الوجود يكون بمعزل عن هذه الرحمة المهداة من الله تبارك وتعالى.

فقد جاء فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! أدع على المشركين، قال: إني لم أبعث لعّانا، إنما بُعثت رحمةً، كما جاء عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنا رحمة مُهدَاة، ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عينية عن مسعر عن سعيد بن خالد عن رجلٍ عن ابن عمر، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله بعثني رحمةً مهداةً، بعثت برفع قوم وخفض آخرين"[1].

ولعل فيما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من علة بعثته نحو العالمين، وقال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" دليلاً واضحاً على هذه الرحمة التي عر فها العالم البشري، وجرّبها من لدن بعثته صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، ولولا أن الله سبحانه وتعالى جعل نبيه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم، لما أدرك البشر سرّ الحياة وحلاوة العيش، وكان صرح الحضارة الإنسانية ناقص البناء وقليل الثناء.

إن فكرة الحضارة الإسلامية تتوضح بغاية من الوضوح من خلال ذلك المنظور الأدبي الذي تبناه رجال الأدب والبيان في شرح حقائق الكون والحياة، وبيان المفاهيم والمعاني التي تلهم إلى المجتمعات الإنسانية في كل مكان وزمان طريقة العيش الهنيئ، وتوحي إليها سبل

---

[1] تفسير ابن كثير.

السعادة واليقين، وتربطها مع نواميس الفطرة بالطاعة الكاملة للّه ولرسوله صلى الله عليه وسلم. "وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" [سورة الأحزاب: ٧١].

هكذا نجد الفكر الإسلامي في جميع شئون الحياة الفردية والجماعية، وفي كل لون من ألوانها مما يتناوله علماء البلاغة والأدب والبيان، بالأسلوب الجميل وبالروعة البيانية والبهجة الكلامية، حتى يستنير الفكر بديباجة مشرقة، تستسيغها العقول وتتنوّر بها البصائر، ثم يتمهد الطريق إلى الله تعالى.

إن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أسمى نماذج الأدب والفن والبلاغة، إلا أن التعمق إلى الجوانب المعنوية الدقيقة التي تكمن في هذين المصدرين الأصيلين للدين، لا يتم إلا بالاستعانة، بالأساليب الأدبية والبيانية.

"وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [سورة الأنعام: ٥٣] والله يقول الحق وهويهدي السبيل.

أدب الحوار
في خدمة الدعوة (*)

الحوار الهادف، بما يحويه من نقاش موضوعي، وبأسلوب إيجابي وكلام ليّن، بين حملة لواء الدين والحضارات والنظرات الجديدة والقديمة، من جملة وسائل التأثير والبلاغ في النفوس، فمن أقدم وأوثق ما عرفناه من الحوار الموضوعي بواسطة كتاب الله العظيم هوما كان بين موسى وفرعون، حين أمر الله سبحانه بأن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون الطاغية، ويتكلم معه في لين وأسلوب هاديء حول الإيمان بالله تعالى والخضوع أمام قدرته والاعتراف بر بوبيته، وإرسال بني إسرائيل معهما بالانتهاء من تعذيبهم، يقول الله تعالى، وهو يؤكد لهم طريق الحوار: "اذْهبْ أنْتَ وأخُوْك بآياتِيْ ولاَ تَنِيا فِيْ ذِكرِي اذْهبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّه طَغَي فَقُوْلاَ لَه قَوْلاً لَّيناً لَّعَلَّه يتَذَكرُ أويخْشَي قَالاَ: "رَبَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لاَ تَخَافَا إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى" [سورة طه: ٤٥–٤٨].

أوحى الله تعالى إليهما، وأمرهما بأن يكون الحوار قائماً على هذا الأساس المتين، ولا يتعداه إلى جانب من الشدة والغضب والانهيار

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٥٠، العدد: ٩، جمادى الثانية ١٤٢٦هـ.

العصبي، بل يكون مؤيداً بالذكر والثقة بنصرالله تعالى من غير تساهل أو فتور في الاعتماد على الله، وذلك هو السبيل الوحيد للتوصل إلى الطغاة ومجابهتهم بالحوار وردّ كل فتنة عمياء في نحور هم، فليس هناك موضع خوف ما دام الله سبحانه يراقبهما، ويسمع ويرى ما يتعاملان به مع الطاغية وما يكون معه من رد فعل ضدهما، إذن ليس الموضع، موضع تردد أوتأخر عن الصراحة بالدعوة إلى الله تعالى، كرسولين من ربهما يحملان آية منه على ذلك، ولا مناص من ردعه عن الطغيان والاعتداء على بني إسرائيل، وتذكيره بأن العذاب على من كذب وتولى، وأن يمتنع عن الطغيان والعدوان.

ومن هنا يبدأ الحوار بين موسى الرسول وفرعون الطاغية:

"قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى" [سورة طه: ٤٩–٥٢].

كان أول سؤال من فرعون عن ربهما، من هو؟! أفهل هناك رب سواه؟ ذاك أنه كان يدعي بالربوبية، ويقول من غير خوف ولا حياء: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، ترى أن هذا الحوار الذي يقوم على أساس من القول اللين وأسلوب من الإيجاب، ومنطق الحق والعقل، كان جديراً بالاعتراف بالواقع برحابة صدر، لولا أن الله سبحانه كان قد كتب على فرعون الضلال والشقاء، نتيجة تمرده ونفسيته العنيدة واستكباره وعلوه في الأرض، فرغم ما أراه موسى من الآية الكبرى، لم يخضع أمام الحق، ولكنه كذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال: أنا ربكم الأعلى.

وكلما استولت على الإنسان طبيعة الإعجاب بالنفس بمثل هذه الشدة والإصرار، فإنه يكون معول هدم وفساد وظلم للمجتمع الإنساني، ولا يلبث أن يلاقي حتفه عاقبة شره وكبريائه كأضعف إنسان لا يملك من أمره شيئاً أمام قضاء الله تعالى، ويعجز عن استعمال أي حيلة لوقاية نفسه وإبقاء عرشه.

وقد تكرر هذا الحوار في سورة الشعراء، حين أمر الله سبحانه رسوله موسى أن يذهب هو وأخوه هارون إلى قوم فرعون، ولما أبدى موسى خوفه من قوم فرعون أمره بأن يأتيا فرعون ويقولا له: "إِنَّا رَسُوْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أنْ أرْسِلْ مَعَنَا بَنِيْ إسْرَائِيل قَالَ: أَلَمْ نُرَبِّك فِينَا وَلِيداً وَّلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِك سِنِين وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِيْ فَعَلَتَ وأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ"، ويجري الحوار في جو من المرارة وتبادل القول بالقول، والمفاجأة التي واجهها فرعون من جماعة السحرة الذين كانوا من أنصاره الأوفياء، ولكن الواقع الذي شهدوه عمل في نفوسهم وحوّلهم من جانب فرعون إلى جانب الإيمان بالله العظيم، رغم المواعيد المعسولة التي وعدهم بها فرعون، وبشّرهم بأنهم لمن المقربين، فورما يغلبون على سحر موسى، وهنا يجري السياق بالسؤال عن رب العالمين، مَن هو؟ وذلك لأنه يعتبر نفسه رب الناس، ولكن موسى رفض أن يكون هو من الربوبية في شييء، فإن الله هورب العالمين، وليس لفرعون أن ينازع الرب الحقيقي ويدعي أنه الرب والإله.

فما كان منه إلا أن يسائل: "فَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَّاوَاتِ وَالأرْضِ ومَا بَينَهمَا إنْ كنْتُمْ مُّوْقِنِنْنَ".

ويستمر الحوار طويلاً إلى الآية: ٥١ من سورة الشعراء، وأسلوبه على خلاف أسلوب الحوار الأول، يتأسس على بيان الواقع، ويدور

حول تأكيد الربوبية للّه سبحانه وتعالى، إلا أن فرعون لا يرضى بإقرار هذه الحقيقة، ويجول ويصول ويهدد موسى بالسجن والعذاب إذا أصرّ على ما يقول، ويتهمه بالسحر العظيم، ويخاطب قومه قائلاً: "يريدُ أنْ يخْرِجَكمْ مَّنْ أرْضِكمْ بَّسِحْرِه فَمَاذا تَأمُرُوْنَ" وينتهي مشهد الحوار بإيمان سحرة فرعون برب العالمين، وانصرافهم عن صف فرعون إلى موسي، وإعلانهم بأنهم لن يبالوا بالتهديدات التي وجهها الطاغية إليهم: "قَالُوْا: لاَ ضَيرَ إنَّا إلى رَبَّنا مُنْقَلِبُوْنَ".

وفي كتاب الله تعالى أمثلة كثيرة للحوار بين الأنبياء وقومهم، وكل ذلك يدور حول ترسيخ عقيدة التوحيد في القلوب، والإقرار بوظيفة الإنسان الأصلية وعلاقته مع الله ومع الناس، وبيان دوره البناء في هذا العالم الذي يموج بدعوات كاذبة وفلسفات زائفة ونظريات باطلة، والإسلام هو الدين الأخير الذي أكمله الله تعالى لصالح البشرية وفتح الأبواب أمامها للسعادة بواسطة العمل الصالح، والأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية المثلى.

لقد أقبل العالم في خضم الظروف المعادية والإعدادات الضخمة على الصدّ عن سبيل الله، وسد السيل الجارف للاهتداء إلى الإسلام، فعقدت ولا تزال تعقد ندوات ومؤتمرات للحوار بين زعماء الديانات وقادة الحضارات والفلسفات، وذلك كوسيلة من وسائل تبادل الأفكار والآراء حول نشر الأمن والسلام بين الشعوب والمجتمعات البشرية، والتخفيف من حدة العصبيات القومية واللغوية والجنسية التي تعوق مسيرة الحب والأخوة، وتثير الأحقاد والضغائن، وتمد الكراهية والنفور بين بني البشر، ولذلك فإن للحوار إذا كان بالجدية والبحث عن حلول ناجعة للمشاكل، قيمةً لا يستهان بها، فهو يقوم بدور بناء في سبيل

إعداد العقول للتفكير الهادئ في الثوابت الإيمانية والعقيدة الراسخة، وفيما يتأسس عليها من العمل والنشاط للحد على المنكر والرذائل والإشادة بالمعروف والقيم الإنسانية الفاضلة.

وبالتالي عرض الإسلام على أولئك الناس الذين لم يعرفوا عن الإسلام إلا اتهامات باطلة وجهت إليه، ولم يسمعوا عنه إلا أنه دين عنف وقتل وجهاد، ولكن الحوار البناء يكون وسيلةً لعرض الحقائق، وإزالة سوء الظن بالإسلام، وإثبات أن الإسلام هو دين الإنسان في كل عصر ومصر، وأن حضارته هي حضارة الإنسان في كل زمان ومكان.

فالاعتماد على الحوار بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة الحكيمة، طريق نحو الدعوة إلى الإسلام، وموازنته بالديانات السابقة والحضارات المادية، التي طوي بساطها، ولم يعد فيها ما يمنح الإنسان نعمة الهدوء والطمأنينة، والعيش في سعادة وكرامة، فقد جرب العالم كل ديانة قديمة وحضارة مادية جديدة، فعاد منها صفر اليد، ولم يحظ إلا بالبؤس والشقاء والقلق والاضطراب، كما هو الشأن في المجتمعات المادية اليوم التي تبحث عن ظل العافية والأمن والسلام، ولكن هيهات:

أدب الحوار له قيمة لا يُستهان بها في مجال الفكر والدعوة، فهو الذي يمهد الطريق نحو دراسة القواعد والأسس التي يقوم عليها صرح الحضارة الإسلامية، وبالحوار البناء يزول كثير من الشُبه والظنون التي تعيش في الناس، فمثلاً، عدد من المثقفين بأن الإسلام في حاجة ملحة إلى تغيير وإعادة نظر لكي يساير الحياة الإنسانية، ويقدم حلولاً للمشكلات الحضارية التي تتوافر اليوم في العالم المتغير الجديد.

فبالحوار الهادف يمكن شرح الفكر الإسلامي والأسس الحضارية في الإسلام لكل فريق لا يكون فكره نقياً نحوالإسلام

وشريعته، وبالتالي إقناع النفوس بحضارة الإسلام والقيم الخلقية التي لا يستغني عنها الإنسان في مسيرة الحياة في أي حين، والتي توفر للحياة الجمع المتزن.

أرى أن ندوات الحوار بين الدين الإسلامي والديانات الأخرى، من الوسائل المهمة المعاصرة في إعداد النفوس لدراسة الإسلام ومدى دوره في التوجيه إلى القيم الإنسانية، وبناء المجتمع الأفضل الذي يمثِّل الحياة السعيدة النزيهة، ويؤسس الحضارة الإيمانية التي تتولى إخراج الإنسان من وهج الحضارات المادية العفنة وشقائها إلى ظلال العز والأمن والسلام، والعقيدة والإيمان: "فَمِنَ النَّاس مَنْ يقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِيْ الدَّنْيا ومَا لَه فِيْ الآخِرَة مِنْ خَلاَق وَمِنْهمْ مَنْ يقُوْلُ: رَبَّنَا آتِنَا فِيْ الدَّنْيا حَسَنَة وَّفَيْ الآخِرَة حَسَنَة وَّقِنَا عَذَابَ النَّار أوْلَئِك لَهمْ نَصِيب مِّمَّا كسَبُوْا وَالله سَرِيعُ الْحِسَابِ" [البقرة: ٢٠١–٢٠٢].

وصدق الله العظيم

الأدب الإسلامي
حاجته ودوره في الحياة![*]

لقد كان دُعاة التغريب أذكياء، يوم قرروا استغلال الآداب العالمية لتحقيق برامجهم الهدَّامة في المجتمعات الإسلامية، وانطلق في ضوء إشاراتهم وتعليماتهم هُواة الفن، لكي يضعوه في مجالات اللهو والتسلية وإذكاء شُعلة النفس الأمارة بالسوء، واستثارة الغرائز الجنسية والدوافع الشهوانية، واستطاع هؤلآء الدعاة الدهاة بفضل ذكائهم، وبالعلم والحكمة أن يؤكدوا للناس ما للأدب والفن من دور كبير في تنشيط النفس وترويج الإنسان في فراغه، دون أن يكون له أي مساس بالوظيفة الدينية التي يتولاها المرء المسلم.

ومن ثم وُجد في مجتمعنا الإسلامي رجال من أصحاب العلم والدين ظنوا أن الأدب لا شأن له في حياة المسلم، وزعموا أن من يشتغل بالآداب والفنون من المسلمين إنما يُعتبر ناقصاً في دينه وأخلاقه، ذلك لأنهم اعتبروا الأدب شيئاً زايداً على ما يجب أن يتحلى به المسلم في حياته، فالذي يركن إلى الأدب ويجد في نفسه ميلاً نحو الفن لا يفعل إلا لضعف في عقيدته، وتحرر عن القيود الخلقية والإيمانية في نفسه، ولذلك كان الأديب دائماً موضع انتقادهم وازدرائهم، وكانت شخصيته مركزاً لضعف الإيمان والعقيدة، ورمزاً للانحراف والضلال في أنفسهم.

---

[*] مجلة البعث الإسلامي، جمادى الثانية ١٤٠١هـ / أبريل ١٩٨١م.

اقتنع هؤلآء الرجال من علماء الدين والفضيلة بطرح الأدب جانباً من الدين وإقامة حاجز بينه وبين الدين، ظناً منهم أن الأدب يُفسد دين المرء ويُغريه على ممارسة الأهواء والشهوات، ومخالفة الفضائل والأحكام..هذه النظرة نحوالآداب والفنون الإنسانية كانت أول ثمرة من الجهود المكثفة التي بذلها دُعاة التغريب في أوساط المسلمين الدينية، وتبعتها ثمار يانعة جنية في كثير من المجالات الحيوية، التي اختصت بالمجتمع الإسلامي وعاشها المسلمون في حياتهم الفردية والاجتماعية.

وقد أحس بهذا الخطر الداهم رجال آخرون من أصحاب العلم والبصيرة، وأدركوا المكيدة الخطيرة التي تختفي وراء تلك المجهودات السريعة التي يقوم بها أعداء المسلمين عن طريق الآداب وفنونها، حيث إنهم اتخذوها مدخلاً واسعاً نحو التحريف في الدين، وإضعاف علاقة المسلمين بالقيم الخلقية والمثل العليا، فلم يكن الأدب الوجودي، والأدب العربي، والأدب الماركسي، والأدب الصهيوني إلا معاول هدم للمفاهيم الدينية، وتشويه لمعاني الأدب الرفيع والفكر الإنساني النبيل، وشتان بين سموالأدب الذي ينبع من الإسلام ونزاهته، وبين هذه الآداب الشقية التي لم يخترعها إلا لحاجة خسيسة وغرض دنييء في أنفسهم، وقد جنت هذه الآداب الهزيلة المصطنعة على الأدب الأصيل، الأدب الإسلامي الذي يقوم عليه أساس الخلق والفضائل، والسماحة والأمانة.

وإذا دققنا النظر في تاريخ هذه الآداب الاصطناعية، ودرسنا الموضوع في جديد وعمق وبصيرة، وجدنا أنها مؤامرة على الإسلام ضمن المخططات التغريبية والاستعمارية الواسعة التي شملت دول المسلمين على اختلاف شعوبها وأضعفت صلتهم بتعاليم دينهم وعقائدهم، ولذلك فإنهم قد انحرفوا بآدابهم إلى طرق معوّجة من

التحرر والتجدد، والإباحية، والانطلاق مع الغرائز والانسياق نحو الشهوات، حتى أصبحت لها أسماء أدبية وفلسفات فكرية ما أنزل الله بها من سلطان، ونشأ لها أنصار وعبيد، أولوها أهمية كبيرة، واتخذوها سلاحاً لتدمير الفضائل والأخلاق والقيم العليا.

وأيُّ عالم أديب يجهل الحركات الأدبية الشهيرة، التي تملأ العالم اليوم بآداب رخيصة وفنون ركيكة من الوجودية والفنية والواقعية والطبيعية، والرمزية، أليست هذه التيارات الأدبية الخاطئة معاول هدم وتخريب وإفساد وتشويه للمعاني الإنسانية الرفيع، وأداة قوية لنشر المبادئ الباطلة وخدمة المذاهب الهدامة من الشيوعية والاشتراكية والديموقراطية والبلشفية والرأسمالية وما إليها من فلسفات برّاقة الأسماء واللافتات.

فهل من المقبول أن يتغافل المسلمون سلاح الأدب العظيم الذي أكرمهم الإسلام به وزوَّدهم به كتاب الله وسنة رسوله، ويتركوا المجال واسعاً لدُعاة الهدم والفساد، وهُواة الشر والفاحشة أن يعبثوا بكرامة المسلم ويلعبوا بأعراض الأخوات والأمهات، ويخرجوا بالشباب والشابات من بيوت المسلمين إلى الأسواق والشوارع وقارعة الطريق ليبيعوا أغلى ما عندهم من متاع العرض والعز بثمن بخس دراهم معدودة، ولا يبالوا بما إذا تعرّوا عن لباس الحياء والزينة أمام كل إنسان.

إن الأدب السليم والأدب الأصيل قبل أن يدعيه أحد أويملكه أحد هو ملك المسلم، ومجال الإسلام فيه أوسع من غيره، وقد انتمى إليه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، فقال: "أدبني ربي، فأحسن تأديبي" وقال عن القرآن كتاب الله العظيم: "إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته".

وهل بعد هذه الشهادة من شك في أن الأدب ملك الإسلام، ومجال المسلم فيه أوسع، وهو أحق بأن يتأدب به، ويتعلم من خلاله فضائل الأخلاق ومكارم الآداب، وهو الذي يتحمل مسؤلية إنقاذه من المستنقعات العفنة التي أنشأها له أدعياء الفكر والفلسفة، وأشقياء المدنية والحضارة، ومحترفوالعلوم والفنون، فإن للكلام سحراً وتأثيراً على النفوس والعقول، لا ينكر هما من يعرف قيمة الكلام وأهمية البيان، ويقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً".

وانطلاقاً من هذا المبدأ الأساسي وتأكيدًا لأهمية الأدب الإسلامي وللحدب عليه وتعميق معانيه في الجيل المسلم المعاصر عقدت ندوة العلماء أول ندوة عالمية للأدب الإسلامي في شهر جمادى الآخرة عام١٤٠١هـ في رحاب جامعتها الكبرى برعاية الداعية الإسلامي الكبير والأديب العبقري العظيم سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي، رئيس ندوة العلماء سابقاً، لمدة ثلاثة أيام حضرها أولوالغيرة من رجال القلم الإسلامي والكتاب الإسلامي من مختلف بقاع العالم الإسلامي، فكانت هذه الندوة الأدبية ملتقى أدبياً وفكرياً لدراسة موضوع الأدب الإسلامي، وتركيز أهمية وضرورة الموضوع في أوساط العلم والأدب والدين على السواء، التي أغفلت هذه الأهمية وتناست هذه الحاجة الأكيدة، وقد أشار إلى هذا الجانب المهم الأساسي سعادة الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا في بحثه القيم الذي قدَّمه في الندوة العالمية، جاء فيه:

"من سوء الحظ أن أدباءنا الإسلاميين في العصر الحديث قد تخلوا لغيرهم عن الفنون الأدبية الحديثة، وانصرفوا إلى قرض الشعر وكتابة

المقالات وإعداد البحوث، ظناً منهم أن بين الدين وبين القصة والمسرحية جفوةً تصل إلى حد القطيعة.

لا يعلم إلا الله مدى النكبة التي حلت بالأدب الإسلامي من جراء هذا التخلي، ولا مبلغ الخسارة التي لحقت بالمسلمين بسبب ذلك، لقد غصت مكتباتنا الخاصة والعامة خلال النصف الثاني من هذا القرن بآلاف القصص الموضوعة والمترجمة، وأقبل عليها أبناؤنا وبناتنا إقبالا فاق كل تقدير، وعبوا من سمومها وموبقاتها ما يكفي لقتل أجيال من الناس، ففسدت أخلاقهم وتزعزع إيمانهم، واتجهوا اتجاهات تسر العدو، وتحزن الصديق.

لقد آن الأوان لأن نرجع إلى أنفسنا ونجند طاقاتنا وطاقات شبابنا الموهوبين لاقتحام هذه الساحة، فما يزال فيها حتى اليوم موطئاً لأقدامنا، وما تزال بين جماهير القراء أفئدة تهفو للأدب النظيف.

الأدب الأثيم(*)

لما كان لأدب اللغة أعمق الأثر في عقلية الناشئة وشعور الشعب، وكان له نفوذ كبير في تهذيب النفوس وتشويهها خلقًا ومروءة، وكان هو قوة عظيمة تستطيع أن تحدث في المجتمع انقلاباً عقليا أوثورة فكرية، فهو إمّا عامل بَنَّاءٌ يبني المجتمع ويكوّن العقلية ويربي الشعور، ويحفز إلى الخير، وإمّا عامل هدّام ينسف المجتمع ويزعزع العقيدة ويسقم العقلية ويفسد الأخلاق.

فالأدب الذي يثير العاطفة الجنسية ويلهب الشهوات ويعبث بالعقول ويهزل بالحياة كما نقرؤه اليوم مع الأسف في أكثر الصحف والمجلات، ونشاهده في أكثر الكتب الأدبية والروايات الغرامية، ذلك هو الأدب الأثيم الذي يجني على قرّائه ويرزؤهم في قيم الإنسانية والفضائل الخلقية، ويصوّر الحياة ملهى من الملاهي أو مقهى من المقاهي، لا جدّ فيه ولا جهاد ولا صبر فيه ولا إيثار، يحبس الحياة في قالب المادّة والمعدة.

قد امتلك هذا الأدب اليوم التفكير والأقلام في جميع البلاد، وإنما الرائد الذي يقود هذا الأدب، والذي هو إمام له هو الأدب الغربي الذي يجري وراء المادة، ويدورحول المرأة، إنّ البلاد التي جعلت شعارها وهتافها "لا إله إلا الهوى، ولا موجود إلا المادة"، والتي تنادي

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد الأول، العدد: ٣، ١٩٥٥م.

بأعلى صوتها في العالم، إنما السعادة والهناء إرضاء النفس وإعطائها ماطلبت، واستغراق الوقت في ما يلذّ ويطيب ويكسب للإنسان الذهب الوهاج، الذي هو وسيلة كل لذّة ودعة، لا تنتج إلا هذا الأدب العليل الهزيل، ولا يروج فيها إلا هذه الكتب والصحف الموبوءة التي تحمل سموم الخلاعة والاستهتار.

إننا نرى إقبالاً إلى هذا النوع من الأدب واستقبالاً له في الشرق الإسلامي والبلاد الإسلامية كذلك، ومن المؤسف المحزن أن نرى أدب العالم الإسلامي اليوم نسخة صادقة للأدب الغربي تسيطر عليه المرأة وتتحكم فيه، فكلما تحدَّث أدباؤنا تحدَّثوا عن المرأة، وكلما كتب كتّابنا كتبوا في المرأة والجنسيات، وكلما جرت أقلامهم جرت في البحث عنها والتصوير لما فيها من جوانب خلاّبة ومناظر جذّابة كأن المرأة قد تسلّطت على أعصابهم وتملكت أفكارهم حيث لا يرى في العالم إلا ظلها وجمالها، إنما تسرّب هذا الفساد في الأدب والأدباء حتى بقي الأدب منحصرًا "في الجمال والمال"، وفقد كل سعته وحرّيته وشجاعته وسموّه ودقّته وعمقه، وهذا الذي جعل الأدب أثيماً يجني على الدين والإنسانية وعلى الشعب والأمة وعلى نفسه التي كانت موضع احترام وإجلال من جميع العقلاء، وقد مثّل في تاريخ العالم دوراً لا يقلُّ في خطره عن الدور الذي مثله العقل والفلسفة، بل يفوقه مراراً.

إنّني لا أنكر وجود المجون في الأدب العربي كذلك فإن هذا نوع في الأدب العربي وجد من القديم، وقد ظهر منذ بدأ الشعر في العرب ورويت لامية امري القيس، ودالية النابغة ورائية بشا ربن برد، وفواحش أبي نواس، ومنتديات ابن إياس، وأقبل الأدباء والشعراء في ذلك العصر ينظمون المجون وينثرونه في قصائدهم ومقالاتهم، ولكن

من هؤلاَء الشعراء والأدباء كانوا يعملون ذلك، ولم يكن الجمهور من الناس يرضون به ويسيغونه، وكانت تقوم لهولاء أندية ومجالس يخلعون فيها لباس الاحتشام والخلق الجميل، ويدخلون في التندّر والد عابة والخلاعة والرقّة والضلال، ولا شك أن الأمة الإسلامية لم تكن ترضى ذلك، بل كانت تنفي عليه، ترى لذلك عددًا كبيرا من الكتب التي ألفت في ذلك الوقت تحمل نقدا لاذعاً على هذه الطائفة الصغيرة المضلة التائهة، فمن ذلك نستطيع أن نعرف مبلغ وعي الأمة في هذا الصدد وإنكارها على هذه المنكرات.

ولما هتك بشّار في بعض قصائده الماجنة ستر الحشمة أنكر الناس منه ذلك وتمنّوا موته ولم يلبث في مجونه، بل انتهى به إلى أن أمر به الخليفة المهدي فضرب بالسوط حتى هلك، وكذلك أبو نواس استهتر في الغزل واسترسل في الفجور، حتى حبسه الخليفة الأمين، ولم يخرج منه إلاَّ بجهد، وقرأت في كتاب أن شاعراً فرنسيا نظم ديوانه، وكان ماجنًا فثار الناس على جرأته وغضبوا عليه حتى ضيقوا عليه عيشه وساقوه إلى محكمة القضاء فحكم عليه القاضي بغرامة كبيرة، وطمس القصائد الماجنة من الديوان.

هذه عدة أمثال لا تكفي لهذا الموضوع البسيط، ولكنها تعطي صورةً مصغرةً للقارئ في أدب المجون الماضي وإباء الناس عن قبول هذا النوع وإساغته، فهل تجد في عقلية الأمة اليوم وعقليتها بالأمس فرقا؟ وهل كانت الحال كما هي اليوم؟ وهل يحس أدباؤ نا وليسوا من الجرأة بمكان عظيم في نشر الشعر الخليع والأدب الماجن والتصوير العاري وفي العبث بالأعراض والأخلاق خطراً على أنفسهم؟ لعلك ترى الحال على عكس ذلك، وتقول: إن الأمر ليس كما كان، بل تغيرت طباع الأمم

واختلفت المعايير لدى الناس وذهبت الحمية وفقدت الغيرة وتبلد الحسّ.

وهب، أن الأمة فاقدة الوعي متبلّدة الحس، لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكراً، ولا تميز بين الغي والرشد، فهل كان يحسن بالأدباء وهم أصحاب الرسالات والأمانات في عالم الأفكار والأخلاق. أن يجاروا هذه الأمم السقيمة في سقمها، ويتعللوا لأنها عليلة، ويكونوا لأصواتها أبواقاً ولبضاعاتها أسواقا، وأن يستغلوا هذه البلادة في الأمة وهذا الفساد في الأذواق والأخلاق، وأن ينتهزوا هذه الفرصة ليحترفوا بالأدب السقيم والشعر الأثيم، إنه شأن الجبناء وضعاف العقول وصغارالنفوس، إنه شأن من لا رسالة له ولا هدف له في الحياة، إنّي أربأ بالأدباء عن هذا المنزل.

إن الذي يجمل بالأدباء ويليق بمكانتهم ورسالتهم أن يصلحوا هذا الفساد في نفوس الأمة ويطبّوا هذا الداء، ويعارضوا هذا التيار الجارف بكل قواهم ومواهبهم، ويثوروا على النزاعات الفاسدة والميول المريضة والأذواق المنحرفة والنفوس الممسوخة، إن الأدب الذي يتنازل عن الإمامة والقيادة، ويهجر مهمة الإصلاح والتجديد وينصرف إلى الاتباع والتقليد ويرضى بالمجاراة والمحاكاة، إنه أدب ممسوخ، وإنه أدب"منتحر"، ولا يستحق أن يُسَمّى "أدبا"، إنما هوحرفة وتكسّب وتقليد وتمثيلٌ، لقد أخطأ من فهم معنى الأدب التسلية وتزجية ساعات الفراغ والتمتع بجمال الطبيعة، إنه معنى قاصر من معاني الأدب، إن الأدب أسمى من ذلك وأوسع، إنَّ الأدب رسالة ودعوة، وثورة وجهاد، وهدم وبناء، وقد خاطب إقبال"الأديب الحق" أمثال هؤلاء الأدباء الذين قد أخطاؤا فهم الأدب وضيقوا سعته، بقوله:

"يا أهل الذوق والبصر! لا بأس بالتمتع بالجمال وما خلق الله في

الكون من بدائع، ولكن الشأن في الوصول إلى الحقائق والأعماق، إن الأدب "الحق" هو الذي يطمح إلى الخلود ويلهب شعلة الوجود، أما الأدب الذي يلتهب ثم ينطفئ ويظهر ثم يختفي إنه ضائع، وأنه أدب لا قيمة له، إنه لا قيمة عندي للدرّ الذي يرسب في أعماق البحر أوالصدف الذي يطفو على سطحه. ذلك هو الأدب الذي لا يحرك ساكن الحياة ولا يثور على الأوضاع. إن الذي أجلّه وأكبره هو"الثائر" الذي ترتعد له فرائص البحر ويرجف فؤاده، إنه لا خير في شعر الشاعر أونعمة المغني إذا اكتسب منهما المجتمع جموداً أوخموداً وإخلاداً إلى الحياة، إن النسيم الذي يهبّ على روضة فلا يفتح الأكمام ولا يوقظ الوسنان نسيم عليل حقًا لا يحسن إلى الروضة، إنه لا بدّ لحياة الأمم ونهضتها من معجزات "أدبية"، إن الأدب أوالعلم الذي لا يفلق الصخر ولا يشق البحر مثل عصا موسى، أدب عقيم وعلم سقيم".

الأدب والإسلام

في ميزان الواقع والتاريخ - ١[*]

الأدب قوة هائلة وأسلوب جميل للتعبير والبيان، ولكي ننمي هذه القوة، ونمدها بالوقود، ونوسع نطاق جدواها وغنائها، يجب أن يتوافر فيها الفكر السليم مع العواطف الصادقة، ومن وظيفة الأديب البارع أن يراعي الاختيار الصحيح للألفاظ والكلمات، ويتناولها بالترتيب المتناسق المتزن، ويستخدم أسلوباً يجلب التأثير في مجال التعبير، ومع الاعتراف بهذه الحقيقة لا يصعب علينا الاعتقاد بأن كل ما يصدرمن قلم الأديب من الكلمات تحمل مكانةً وأهميةً خاصةً لها، وهي كآلة حادة تعمل عملها في البناء والهدم معاً، فإذا وضعها الأديب في خدمة أهداف هدامة، فإن ذلك يخلق مفاسد كثيرةً، وربما يؤدي إلى دمار اجتماعي شامل لا يأتي عليه الحصر ولا النهاية.

لقد وُجد الأدب لتحقيق هذه الغاية المهمة، إنه يكسو الكلمات كسوة المعاني ويعبر عن الحياة والكون أصدق تعبير ويفسرهما أحسن تفسير، ويدعو إلى الأخلاق الطيبة ويعمم المثل العليا ويشجعها تشجيعاً كاملا، وبتعبير آخر: إن الأدب وسيلة عظيمة لتوجيه كل ما يصدر من القلم واللسان من الكلمات نحوالوجهة الصحيحة وجعلها ذات هدف، فإنه لا يساعدنا في التنبه على ألوان الحياة المختلفة وطرائقها، وعلى

---

[*] مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٣، العدد: ٥، محرم الحرام ١٤٠٩هـ.

مرتفعاتها وهضباتها بطريق أجمل، وتحليتها بالجمال والأناقة والتهذيب فحسب، بل إنه يمهد الطريق نحو ترقيق العواطف والمشاعر وتركيزها على طريق الموضوعية كذلك.

الفن لا الأدب:

وإن كان المؤرخون قد ينسبون الأدب والفنون الجميلة إلى عهد ما قبل الميلاد في اليونان، ويعتبر ونهما من نتائج فكر أرسطو وأفلاطون، ولكن الواقع على خلاف ما يدعون، وهو أنه لم يكن هناك أي وجود للأدب، وكل ما كان يوجد إنما كان يتصل بالثقافة والفنون الجميلة، ذلك لأنهم ما كانوا يعرفون للأدب أي مفهوم ولا معنى، وما كانوا يستعملون هذا المصطلح للتعبير عن مواهبهم الفنية وتفسيرها، وكانوا يمثلون الشعر والنغم والموسيقى والنحت والتمثيل والحضارة والمدنية وما إلى ذلك من البراعات الفنية باسم الثقافة والفن، ويسمون العلم والفكر والمنطق والمعقولات وكافة المجهودات العلمية باسم الفلسفة، أما الذين دوَّنوا تاريخ الأدب والنقد من بعدهم، فلم يروا أي بأس في استعمال تعبير "الأدب" للفن والثقافة اليونانية.

وليس أن مصطلح الأدب لم يكن معهوداً في ذلك العهد للفن "Art" والثقافة الرومانية واليونانية، بل كان لا يوجد لمصطلح الأدب أي عين ولا أثر للشعر العربي، ونماذج النثر قبل الإسلام في العهد الجاهلي، ولم يستعمله أدباء العهد الجاهلي وشعراؤه أيضاً في هذا المعنى لأدبهم وشعرهم، ولم يكن تصور الأدب في أذهانهم كتصوره الراهن ومفهومه المعاصر، ولذلك فإننا لم نجده مستعملا في ذلك العهد في مفهومه الشائع المتعارف، وما قدم أحد من مؤرخي ذلك العهد ولا شعراء ذلك العصر، الشعر الجاهلي وثروته الثرية تحت عنوان "الأدب الجاهلي".

الإسلام وآداب الحياة:

لم يكن في الجاهلية أن تقدم فكراً واضحاً، ولا تصورًا محدوداً ومعيناً، فكان هناك أزمة القيم الخلقية وآداب الاجتماع، بل ولم يكن أي وجود لها، فبفضل الإسلام حدثت ثورة في الحياة الإنسانية وخطت حدودها ومعالمها ووضحت آدابها وأكرم الإنسان بتصور نزيه للحياة، ولتدعيم هذا التصور في الصورة العملية وترسيخ قواعده لعبت تعاليم الإسلام الخالدة دوراً عظيماً ومهما جداً، وأصبحت الأخلاق جزء للحياة كباب مستقل، وربط كل جزء منها بأدب، حتى تكونت نموذجاً كاملا للآداب والأخلاق الفردية والجماعية، وتعلم المسلم من آداب الخلوات إلى الآداب الجماعية والسياسية وحتى آداب الحكم، وجاء بيان تفاصيلها بكل وضوح في التعاليم الإسلامية.

هكذا مثَّل الإسلام في الواقع تصوراً عظيماً للأدب، وكان من مقتضيات هذا الأدب أن تتجمل الحياة بجميع أنواع المكرمات والفضائل، وتتحلى بروح الموضوعية، وتبتعد كل البعد عن الأخلاق السيئة الانحلالية والخصائل الشيطانية، وكان كتاب الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنوانين جليين لآداب الحياة وأساليب العيش، وكانا مصدرين عظيمين للهداية، يوجِّهان الحياة ويُلقيان دروسًا من الحضارة والمدنية والعلم والفكر ولطافة الحس ورقة الذوق والوجدان، كما أنهما يزينان الشعور بجوهرة الدقة والرقة والنزاهة مع إرهاف الروح.

الإسلام والأدب متقاربان معنى:

والأدب في اللغة الدعوة، أدب يأدب أدبا: الدعوة إلى خير، وقال ابن منظور في كتابه "لسان العرب": سمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى

المحامد وينهاهم عن المقابح، برز الإسلام كدعوة إلى الخير، ومن تعاليمه الأساسية هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غايته الدعوة إلى سبيل الله تعالى، فإذا كانت الدعوة بأسلوب سهل ملائم مصحوبةً بالحكمة، متدفقةً بروح النصح والموعظة، فلا سبيل إذن إلى التعبير عنها بدون الاستناد إلى كلام جميل ممتع مؤثر جداً، سواء نعبِّر عنها باللسان أو بلسان القلم، وبنفس هذا النوع من الطراز يأمرنا القرآن الكريم أن ندخل في ساحة الدعوة ونقدمها أمام الناس، وهو يوضح لنا طريقة الدعوة ومنهجها بكل وضوح وصراحة: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل: ١٢٥).

وفي رواية عبد الله بن مسعود عبَّر القرآن عن كلمة الأدب بصراحة: "إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه: أدبني ربي، فأحسن تأديبي، واعتبر الوحي والقرآن بقوله هذا أدباً فلم يبق هناك أي مجال للشك والارتياب أن الإسلام رسالة ومنهج تربوي مع ترادفه الأدب معنى، وأن تعاليمه وتفاصيله صغيرها وكبيرها تتعلق وتتصل بكل ناحية من نواحي الحياة، وتنسجم انسجاماً كاملا دقيقاً مع مقتضيات الفطرة، فلا يحيد أي منهج عن طريق الحكمة والجمال، وهو يشرح عن طريق الكلام والبيان رسالة الحياة والكون والإنسان ويحدد مكانة كل منها.

الأدب مصطلح إسلامي خالص:

فإذا كانت علاقة الأدب بالإسلام هكذا وطيداً ودائماً حيث ينطوي مفهوم الأدب في المنهج التربوي الإسلامي، وترادف الدعوة إلى الله معنى الأدب، فاسمحوا لي أن أقول: إن الأدب والإسلام ليسا شيئين متباينين، وإن الأدب في الواقع مصطلح للإسلام وتعبير عنه،

ففيه يتوافرالأدب بجميع خصائصه وميزاته السامية، وكافة مناحيه المنوعة، يُوجد فيه العلم والفكر والحضارة والثقافة والأخلاق والفضائل بطريق أجمل وأشمل وفي أسلوب مؤثر مثير، تجد فيه التعبير عن حقائق الحياة وتفسير رسالة الكون والإنسان وتبيين أهمية الإنسان ومكانته، فيه تصوير للعواطف والمشاعر الرقيقة، وتشجيع لتقديم كل نوع وصنف من الكلام والبيان في أسلوب موضوعي هادف مع الفلسفة والتاريخ، وقد عرض الإسلام الحقائق الأبدية للكون في الأدب السماوي وأسلوب البيان النبوي في صورة مؤثرة بجمال وكمال وأسلوب ساحر جذاب أخاذ، فلسنا مُبالغين ولا مجازفين إذا ما خطونا خطوةً إلى الأمام وعبَّرنا عن هذا الأدب بالأدب المعجز والأدب السماوي، فقد كان مصطلح الأدب قبل الإسلام مجهولاً ومغموراً، والناس كانوا يعرفون الشعر والأ شغال الفنية الأخرى باسم الثقافة والفن، وإن كانت الفنون الجميلة كلها تدخل في إطارهما، دون صنف الكلام وحده.

إن الأدب كفن مستقل عطاء الإسلام، فالجاهليون لم يكادوا يستكشفون هذا المصطلح لأعمالهم، ولما عمّ مصطلح الأدب بما جاء به الإسلام من أدب، وراج رواجاً بفضله أقبلت جميع شعوب العالم عليه وقبلته للإنتاجات العلمية والفنية التي كانوا يعبرون بها عن حقائق الكون بأسلوب لطيف مؤثر، واختاروا للدلالة عليه في الإنجليزية كلمة Literature، ثم بدؤا يُطلقون كل ما يؤثر من الإنتاجات القديمة الفنية والبراعات وحتى الأفكار والتصورات اليونانية اللاطينية على الأدب اللاطيني واليوناني، رغم أنه كان يُعتبر جزءًا لثقافتهم وفنونهم الجميلة (Culture and fine arts).

اتساع الأدب الإسلامي وشموله:

وهناك يتضح ما نقول إلى حد كبير أن الأدب وُلد في أسرة مسلمة خالصة، وأنه إسلامي من كل جهة، وهو رسالة للنوع البشري، وهدفه القيام بمهمة التعبير الصحيح عن الإنسان والكون والحياة، وتنبيه الإنسان على الغاية التي خُلق لأ جلها وصياغة كل من القلب والذهن والعمل والفكر والشعور في قالب الإيمان واليقين، حتى تتمكن الحياة أن تسير على الوجهة الصحيحة بكل ثقة واعتماد، ويتجلى أمامها بغيتها المنشودة، وتراها بعين البصيرة.

الأدب الإسلامي بوجه خاص يهدف إلى بناء الحياة والسيرة الإنسانية، وهو يعين دور الحياة الإنسانية في الكون، ويكشف لها نوعية صلتها به، فإلى أي مدى يجب أن تكون علاقة الإنسان مع الإنسان وما هي مراتبها؟ وكيف يمكنها أن يُجدي بحياتها لآخرين وينفع بها الناس؟ وما هو الموقف الذي ينبغي أن يتخذه تجاه الأمور الدنياوية والشئون المادية؟ وأي رباط ير بطه بالله تبارك وتعالى؟ وما نوعية هذا الرباط والاتصال؟ وكيف يستطيع أن يجعل الدنيا مزرعةً للاستعداد للآخرة ومركزاً للتجهيزات ليوم الدين بإنشاء جو من الأمن والهدوء والسلام والطمأنينة؟

الأدب الإسلامي يشمل ويحيط جميع نواحي الحياة، ولا تضعف قبضته أبداً على الحوادث والأوضاع التي تحدث في الكون، يتناول الوقائع والأحداث بالتحليل الفني، ويؤثر على ما حولها من الأحوال ويهيئي للفكر والخيال غذاءاً صالحاً ويزيده، ويزكي الذهن والفكر من كل نوع من الرجس والدنس والعناصر الهدامة، وينزه دائماً البيئة من المزابل والأمراض الخلقية ومن الأدواء السلوكية والفكر ية، ويسد

أبواب الفتن الاجتماعية بغاية من الحكمة، ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة مما لا يأتي عليه الحصر.

يشهد التاريخ أنه كلما سرت المنكرات والسيئات في شعب أو مجتمع، وغزت الأنانيات والظلم على الحق والعدل، واستولت عقلية النفعية والاستغلال، وعم فيه فقدان الضمير، قام الأدب الهادف الموضوعي بتمهيد الطريق نحو الثورة ضدها وإيقاظ الشعوب من سباتها وغفوتها، وتزكية الفكر والخيال مع إبادة القوة المسيطرة المهاجمة والقضاء عليها، ولم يزل دوره أعظم وأجدر بالذكر في القضاء على عهد التبعية والعبودية، وكل ما وقع في التاريخ من الأحداث المليئة بالفتن كان دور الأدب في مقاومتها كبيراً وعظيماً يجدر بأن يسجل بعنوان جلي بارز، سواء كانت فتنة خلق القرآن أوالحركة الباطنية أم غزوالتتار، أوغيوم الحروب الصليبية الغاشية على المسلمين وبلادهم.

ملامح الأدب الإسلامي الواضحة:

كما ذكرنا سالفاً أن الأدب الإسلامي مع جميع ميزاته وخصائصه الفنية يحتل درجة الكمال والبراعة في تصوير الحياة والتعبير عن الكون وتفسير الموقف الإنساني، وقد أحرز قصب السبق في إقامة طبيعة متزنة صادقة للأدب، وإن من أبرز سماته وصفاته هي تعيين القيم الخلقية وجمع شمل العناصر الفنية وحراسة جميع جوانب الحياة ظواهرها وبواطنها والمراعاة الكاملة للعواطف والأ حاسيس الإنسانية مع تربيتها، وتهذيب الأفكار وتثقيف التصورات، في ضوء تصور إسلامي خالص، مصدره ومنبعه العقيدة الإيمان، يستمد منهما غذاء ه ويأخذ جلاء ه ونشاطه، ومن هذا المنبع الفياض يستجلب حماسته ودفعه إلى العمل والكفاح فيتكثف هناك أمامه أسرار القدر والكون.

ذات الإنسان هي محور الأدب الإسلامي، يتعامل ويدور حولها، ويتعلق بجميع نشاطات الإنسان وممارساته وكافة أحواله، فلا يبرز وحدة آماله الجمالية ولا يصور أحاسيسه وعواطفه الرقيقة وأحلامه الرائعة وآماله وطموحاته الجميلة وتطلعات مستقبله الزاهر الباهر فحسب، بل ويصف آلامه وأخطاره وأحزانه ومشكلاته وقضاياه ويتصل بعزماته غير المتزنة وأفكاره المشككة أيضاً، ويتعلق بحرمانه وقنوطه وتصوره الرهيب للمستقبل القادم وخوفه للآخرة، فكما أنه يرتبط بالجانب النير الزاهر للحياة يتعلق بجوانبها المظلمة أيضاً، ويدور حول كل من الفكر الإيجابي والجانب السلبي ويؤثر على الجميع تأثيراً.

وكذلك يتعامل مع تنوعات الكون وما فيه من حسن وجمال، ورونق وبهاء ومناظر خلابة فاتنة، كما يتعامل مع أجواء رهيبة للكون وعواصفه المهيبة ونغماته الرقيقة ذات الأفراح والآ لام، وما يحدث فيه من حوادث وأخطار محدقة ومهالك وصحاري وظلمات البحار وأعماق الأنهار واتساعات الأرض وزلازلها المنيفة وقُلل الجبال الشامخة وما يسكن فيها من الكائنات، وأجواء السماء وما يطير عليها من الطيور وما يسبح عليها، من أجرام الشمس والقمر والنجوم والكواكب والغيوم التي ترتفع من السحاب وما ينزل منها الأمطار، وبالجملة ليس شيئ من الكون خارجاً عن نطاق الأدب الإسلامي.

فإذا كان أدب يبلغ هذه الدرجة من الشمول والكمال والموضوعية فلا نستطيع أن نحكم فيه، سوى أن ملامحه فطرية وواضحة، وإن من أبرز سما ته الأصالة (originality) التي تتحكم فيه بأوسع معناه وأكمل مفهومه، وجميع الآداب العالمية قامت على أساسه، وما يوجد

من نظريات أدبية كلها مأخوذة ومقتبسة من الأدب الإسلامي، سواء أكانت النظريات الأدبية الغربية أوالحركات الأدبية الشرقية فكلها تقتبس من هذه الأصالة أولا، ثم تقدم وجهة نظرها، وفي الواقع أن كل هذه النظريات والحركات مقلدة ومقتبسة منها وحدها، وإن كان حملة لواء هذه الحركات والنظريات الأدبية الغربية قد أدخلوا في الأدب الإسلامي الأصيل وجهات الأنظار المادية في صور وأشكال من الفلسفة لكي يوطدوا عن طريق ذلك دعائم استقلالهم، ويؤكدوا للناس أنهم في الواقع مبدعوالنظريات الأدبية ومؤسسو الحركات الأدبية.

وميزته الثانية البارزة هي فكره الذاتي، الذي يتمتع به، بينما نرى أن النظريات التي يحملها الآداب التقليدية الأخرى مستعارة، تأخذ أفكارها الأدبية من ذلك الفكر الذاتي، إنها تستورد الأفكار غير الملائمة للطبيعة، المتعارضة والمصطدمة مع المثل العليا للحياة، وتقدمها كنظرية جديدة مستقلة بذاتها، وليس ذلك إلا ميزة الأدب الإسلامي الذي يعطي الإنسان أدباً ينسجم ويتواءم تمام الانسجام مع الفطرة، ويؤسسه على أساس ثابت من أصالة الفكر والوجدان والذوق والشعور والاستقلال بالذات.

عناصر الأدب الإسلامي التركيبية:

فكلما نأخذ موضوعاً له صلة بالكون والحياة ثم نتحدث عنه بأسلوب رقيق ممتع جذاب، حيث يعبر هذا الطراز من الكلام عن العواطف والمشاعر، ويسترعي انتباه المخاطب ويستلفت أنظاره إليه فيعتبر ذلك الأدب ناجحاً من نواحيه الفنية والأدبية كلها، وإذا كان وراءه هدف طاهر نزيه ودعوة إلى الأخلاق النبيلة الكريمة والقيم الإيجابية كان الأدب هادفاً وذا غاية، وإن أول شيئ يراعي في عناصر

الأدب الإسلامي التركيبية هو الخيال النقي الزكي والفكر الهادف، فإننا بدونه لا نكاد ننجح في تصوير الانعكاسات تصويراً صادقاً وواقعياً عن طريق هذا الأدب، ونواجه الصعوبة إذن في تقديم الفكر الذي نتوخى أن نعرضه على الآخرين.

والعنصر الثاني هو الشعور والوجدان، وهو عنصر مهم أساسي جداً، وبه يكتمل ويبلغ مرحلة النضج والكمال مع الروعة والجاذبية ومتعة القلب والنظر، ولا يمكن بدونه أي تصور للأدب، فكل كلام يخلو ويتجرد عن هذا الوصف فهو أحق بأن يدعي بحقيقة علمية، فحينئذ يكون وضعه في صف الأدب إساءةً إليه وحطاً من شأنه: فمثلا إنك تقرأ عبارةً أو نصاً، نثراً كان أونظماً، فإن كانت هذه العبارة تمس الشعور والوجدان وتمنحهما الارتياح واللذة، فتلك عبارة نضعها في الدرجة الأولى من الأدب، ولكن الحقائق العلمية والفكرة البحتة لا تمس الشعور والوجدان ولا تؤثر على العقل فحسب، وإن كان هناك كثير من الكتابات التي يستفيد منها العقل والوجدان فنحن نعرفها باسم الأدب، وهناك أمر ذوأهمية بالغة، وهو أن الشعور والوجدان يتصلان بذات الأديب مباشرة، فإذا كانت قوته الوجدانية ضعيفة أوليس شعوره رفيقاً مرهفاً وسريع الانفعال والتأثير، فيبقى هذا العنصر ضعيفاً ضئيلاً في أدبه، وبقدر ما يفقده يكون أدبه قليل التأثير وناقصاً من حيث القوة الكلامية والبيانية.

إن الكلمات بمثابة العنصر المادي للأدب، ولكي ينفخ فيها روح الحقيقة يجب استحضار المعاني وترتيبها الذهني والفكري، وهناك ينشأ سؤال عن نوعية التعامل معهما، هل يعد القالب أولا ثم يلقى فيه الروح، أم يكون الأمر بالعكس، تكون حقيقة الروح وترتيب المعاني

موجودين في الذهن من قبل، فيخرجان معاً، وينصاغان في قالب الألفاظ والكلمات.

إن أهل البلاغة يقولون: إنه يتحتم أولاً ترتيب المعاني واستحضارها في الذهن، وعلى هذا الأساس تتولى الكلمات بنفسها التعبير عن المعاني والانصياع في قالب الكلام، ومن براعة الأديب ومهارته أنه يختار الكلمات وفق المعاني ويقدمها في أسلوب عجيب رائع أخاذ، وطراز بياني جميل ممتع، وتكون طريقته هذه البيانية مؤثرة وأفكاره نقية وزكية، حيث تمس وجدان المخاطب. فيقبلها مباشرة، وهذا من براعة الأديب الذي لا يتوخى بيان حقيقة من الحقائق وعرضها عن طريق فني إلا ويجعلها سهلة سائغة يستسيغها المخاطب من غير أي كلفة ولا كلال[1].

---

[1] أعددنا هذا البحث باللغة الأردية لندوة الأدب الإسلامي التي عقدتها جامعة الهداية في جي فور (الهند) بين الفتره ١٧–١٩ أكتوبر ١٩٨٦م (١١–١٣ محرم الحرام سنة ١٤٠٧هـ)، وقام بتعريبها الأخ مجيب الرحمن طالب في كلية الشريعة بجامعة ندوة العلماء سابقاً مشكوراً.

الأدب والإسلام

في ميزان الواقع والتاريخ-٢(*)

تقليد الأدب الإسلامي:

أعتقد أن هذه العناصر التركيبية للأدب الإسلامي إنما هي من معطيات تلك النظرية، واضطرت جميع الآداب العالمية إلى أن تقلد الأدب الإسلامي على اختلاف حجمها، ولا يكاد يتوصل أيُّ أدب إلى النجاح ويفوز بالهدف بالاستغناء عن هذه العناصر، ذلك لأن الأدب مع خصائصه الأدبية ولونه الفني لا يمكنه أن يتخلى عن هذا التركيب الأساسي، فالذين ينادون بهتاف "الأدب للأدب" هم أيضاً يعتبرون هذه العناصر عن مكونات أدبهم، أياً كان هدفهم وراء ذلك عاجلاً أوطارئاً، فقد تأكد لديهم أنه لا بد لهم من محاكاة العناصر التركيبية للأدب الإسلامي، فيما إذا أرادوا أن يقدموه كأدب، ويدعى ذلك أدباً، وإن كانوا يعبرون عن تصور الطهر والنزاهة وروح الموضوعية في هذه العناصر بالرجعية والجمود الفكري.

إن كل ما ظهر من الاتجاهات الأدبية نتيجة للحياة المادية للغرب والحضارة المادية، فهي مقتبسة أساسياً من نظرية الأدب الإسلامي، والفرق بينهما أنها ركزت أحياناً على نقطة الجنس والجمال، وتارة ألبست العواطف والمشاعر زي الحسن والجمال، وسميت باسم

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٣٣، العدد: ٦، صفر المظفر ١٤٠٩هـ.

الأدب، وأحياناً رفض وجود الله تعالى والآخرة ومنح الفلسفة والعقل طلاوة الأدب، واعتبر الإنسان حيواناً وجودياً محضاً، ثم وجهت إليه بكل صراحة ووضوح الدعوة إلى الترف والاستمتاع بنعم الحياة وزخارفها "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" (سورة المؤمنون الآية: ٣٧).

قصة التقيد والالتزام في الأدب الإسلامي:

الأدب الإسلامي: يقوم على أسس وركائز إسلامية خالصة، وكما ذكرنا سالفاً أن تصور الأدب الفني إنما هو عطاء التعاليم الإسلامية، وهو ينبع من منبع الرشد والهداية للكتاب والسنة، والأدب كلمة عربية، واستعمل الأدب في معناه اللغوي قبل الإسلام كذلك، ولكن لما ظهر الإسلام، علم الإنسان آداب العيش وأساليب الحياة وأخضع له جميع أجزائها وجوانبها، وكذلك قام بالتعبير عن الحياة والكون والإنسان بغاية من الوضوح والبراعة في أسلوب جميل رائع جدا، وحدَّد موقف كل منها وعيَّن وظيفته ومكانته، وقد كان كل ذلك في أسلوب يستوفي جميع شروط الجودة والكمال الفني والجمال، وكانت عناصرها التركيبية بالغة مبلغ الكمال في الاتزان والاتساق من كل ناحية، لذ لك فإنه نموذج عال للأدب الفني، ويقوم على أساسه بناء الأدب الجميل.

ومن هنا فإن الأدب الإسلامي مبدأ لجميع آداب العالم، ولم يكن قبل ظهور الأدب الإسلامي أي تصور لأي كلمة ترادف الأدب فضلاً عن أن يكون تصور الأدب سائداً عاماً آنذاك، وكان الأدب اليوناني والروماني يُعرفان باسم: الثقافة أوالفنون الجميلة (Culture And Fine Arts) إلى أن طلعت شمس الإسلام النيرة، ووزعت خيراتها من

الآداب العاليـة الرفيعـة الغاليـة، ومـن هنالـك عمـت الكلمـات والمصطلحات التي ترادف وتقارب الأدب معنى في جميع لغات العالم، ففي الإنجليزية والفرنسية عمت كلمة لتريشر (Literature) بعد اكتشاف الأدب الإسـلامي، وهـي في الواقـع كلمـة لاطينيـة اشـتقت مـن Lita اللاطينية، وكذلك دخلت الكلمات التي تحمل وتعطي معنى الأدب في اللغة الألمانية والروسية وسائر اللغات الأخرى.

وبعـد هـذا القـدر المـوجز مـن التفصـيل لا نشـعر بـأي صـعوبة في التصريح بأن الأدب الإسلامي بذاته أدب ملتزم، قائم على أساس من القيم الخلقية ومتقيد بها، بل وإن كلمة الأدب ذاتها لا تستثنى من هذه القاعدة، ولكن المحاولات لا تزال تبذل من قبل القوى المضادة للإسلام والشعوب المادية للقضاء على التصور الحقيقي للحياة والكون والإنسان والحط من مكانتها ومفهومها السامي.... وكذلك بذلت جهود لفصل الأدب عن مفهومه الطبيعي الصحيح وقطع صلته المتوطدة المباشرة عن الإسلام بعد اعتباره نظرةً إنسانيةً عامةً، وفصله عن الروح الإسلامية تحت ستار المصطلح البرَّاق الجميل لفلسفة الأدب، حتى عاد الأدب مصطلحاً مشوهاً مشبوهاً، حصره عامة الناس في متعة اللسان وحلاوة البيان، وظنوه مجرد أداة تسلية وآلة طرب حتى بقي الأدب في الأوساط الدينية للمسلمين فناً زائداً وطائلاً، والذين كانوا يشتغلون به بدأ الناس يتصورونهم أقرب إلى الدنيا منهم إلى الدين.

كان من أكبر نجاح الفنانين الغربيين أنهم أدخلوا في أذهان المسلمين هذا المفهوم الخاطئ للأدب، وأكدوا لديهم أنه فن وجد لمجرد اكتساب الجاه وحسن السمعة من زخارف الدنيا وعرضها منعزلا عن الدين، ولترسيخ جذور هذا المفهوم الخاطئ قسموا الأدب في الاتجاهات المادية

المختلفة وشكلوا الأدب النقدي كفلسفة مستقلة، وضعوا له مقومات وضوابط مفترضة، وسحروا بها أعين الناس من الطبقة المثقفة، ثم نشأت مدارس مختلفة للأدب والنقد، بعزل المفهوم الإسلامي عنها، حتى أصبح الأدب الإسلامي أمراً غريباً داعياً إلى العجب والضحك، وأصبح انتماؤه إلى الإسلام جريمة لا تغتفر، ويمكننا أن نقدر ما أنشأه أهل الغرب من المذاهب المادية وما حققوه من ممارسات ومحاولات لدعم هذا التصور للأدب ونشره وتعميمه، أنه تم حتى الآن إنشاء مدارس ومذاهب وحركات مختلفة كثيرة للأدب، ولا تزال وجهات النظر الفلسفية تضيف إلى قائمتها وتتولى إشاعة الفاحشة والضلالة وإنكار القيم الدينية باسم الأدب، وتستمر المحاولات الحثيثة للتأكيد على أن الحياة والكون إنما هما مجرد وسيلة للاستمتاع بملذات الحياة الدنيا وزخارفها.

إن فلاسفة الأدب يقسمون الأدب إلى قسمين في عامة الأحوال: تشبيهي وتمثيلي، فالأدب الذي لا يهدف إلا إلى الأدب يُدعى بالأدب التجريدي أيضاً، والقسم الثاني أدب الأحداث، وهذا الصنف من الأدب يقوم بمهمة التعبير والتفسير عن حقائق الحياة وأحداثها، ويُعرف هذا الصنف بالأدب التجسيدي، ولكنه لا يتخطى حدود العالم المادي، ولا يتناول الأحداث والوقائع التي ترتفع عن حواس الإنسان ولا يستطيع إدراكها، والواقع أن الأدب التجريدي ليس إلا فكرة موهومة، وليس هنا ك ما يبرِّر بقاءه في عالم الواقع، ولذ لك تقوم أكثر الاتجاهات والمذاهب الأدبية على أساس الأحداث المحسوسة والمادية.

المذهب الكلاسيكي:

إن كلمة كلاسيكل Classical معناها في اللغة: العالي الرفيع،

يقـول H.L.Lucus : إن هـذه الكلمـة مـأخوذة مـن كلاسـس Classes اللاطينيـة الـتي تحمـل معنـى الازدحـام، وكانـت تسـتخدم في عهـد الامبراطور الروماني توليس King Tulius للطليعة المرصعة الجيدة من الكتيبة، وفي القرن السابع للميلاد استعملت الكلمة للأدباء الفحول والكبار، وفي نفس الوقت استخدموا "كلاسيس" للمؤلفات اليونانية، وبدأت الكتب التي ألفت في اللاطينية تعتبر أدبا رفيعاً، وعرف فيما بعد بالأدب الكلاسيكي، فانطلق هذا المصطلح من مفهومه الضيق، وعم استعماله للنماذج العالية الرفيعة للأدب، وبذلت الممارسات لتفضيل ممثلي الأدب الكلاسيكي على ممثلي الاتجاهات والمذاهب الأدبية الأخرى.

كان هذا الاتجاه الأدبي جديراً بالثناء والاعتناء إلى حد ما في البداية، فقد قام بدور بارز فيرفع مستوى الثقافة وإن كانت الرجعية توغلت فيه إلى حد التقديس، حيث كان ممثلو الأدب الكلاسيكي يعتبرون معصومين عن الخطأ، إنهم وضعوا عند أنفسهم مقاييس للأدب والفن، ورفضوا كل أدب لا تتوافر فيه تلك الشروط المفروضة.

إن موضوع الأدب الكلاسيكي الذي يدور حوله هو الأدب اليوناني والروماني القديم، فهو يتميز بالجمود والرجعية، ويعتبر الأمور المادية المحسوسة جديرةً بالاعتناء والعمل، ويرفض التصورات المعنوية والتي لا تدركها الحواس الظاهرة، ولا يهتم بالشئون الحضارية والثقافية، ويعرض عن الأمور الطبيعية غير الثقافية، الأدب الكلاسيكي يعتني بالجمال الظاهر والشكل الظاهر وحده، ويهمل ما في داخل الجسم ويتصوره أحرى بالإعراض وعدم الالتفات، ومن أهم وأردأ جوانبه أنه ليس فيه أي مجال للصدق والبساطة والتعبير عن

الطبيعة والفطرة، وبكلمات أخرى: الأدب الكلاسيكي مرادف للمتعة الفكرية والكُلفة والصناعة والمبالغة، ومن أمثل وأقدم رجال هذا الاتجاه "هومير" وجلوس، وهورس، فكل شخص يكون قريباً من أدبهم ينال التقدير منهم والمكانة عندهم.

الأدب الرومانسي:

كان الأدب الكلاسيكي يمثل معياراً غير طبعي، ولذلك حاولت الأجيال القادمة رفضها والتمرد عليها، فظهر في بداية القرن التاسع عشر الأدب الرومانسي، أدب التحرر والانطلاق كرد فعل له، وكان من هدفه الأول هو زعزعة جميع القيود العقلية القديمة التي فرضها الأدب الكلاسيكي والقضاء عليها، وأن يعتبر الأدب وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار، ويربط الأدب بالمبادئ، والضوابط الجديدة، لكي يمضي الأدب في عمله الفني بكل حرية، ويتمكن من التعبير عن العواطف بأسلوب جميل مؤثر رائع جداً، ويقوم بنشاطاته الأدبية خروجاً عن جو الحضارة الضيق إلى بيئة الريف الطبيعية.

من ميزة هذا الأدب أنه يصوِّر العواطف والأفكار، متحرراً عن قيود الشعر والوجدان ومنسحباً عن عالم العمل، وتوجد الروح الثورية سائدةً على هذا الأدب، ويتميز عما عداه من الآداب بالتفلت والتحرر الفكري، ذلك لأن محوره الخاص الذي يدور حوله هوعالم الخيال، وانطلاقاً من هذا الأساس فإنه يبذل قوته الإبداعية في خضم التصورات المفروضة، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه الأدبي روسو Roussea ولامارتن Lamartine.

وكان الأدب الواقعي في صورة الخضوع أمام الأحداث المحسوسة السافلة رد فعل لهذا الاتجاه الأدبي، وعلى عكس الأدب الرومانسي،

فإن أتباعه وزعماءه حاولوا البحث عن حقيقة الكون والحياة في الأحداث المحسوسة والمادية على أساس التجربة الاختبار.

الاتجاه الرمزي:

ظهر الاتجاه الرمزي في الأدب والشعر مع نهاية القرن التاسع عشر رداً على الأدب الواقعي، وكما يبدو أن الأدب الرمزي كان يهدف إلى البحث عن الأسلوب الحديث في الأدب والشعر، ولكنه في الحقيقة كان رد فعل ضد شيوع الفكرالعامي وتحكمه في الشعر والأدب، وكان هذا معارضاً لتصور الديموقراطية، قامت بها الطبقة المترفة، فقد كثر الشعراء في هذه الطبقة ممن حاولوا إدخال الموسيقى الصاخبة في الأدب الشعري باسم الرمزية، وتطبيقها على حياتهم الخاصة ومجتمعهم، فالدنيا عندهم ليست إلا نغماً وجمالاً، ومجرد عشق ومتاع، ولم يكن ليتوافر لهم ذلك إلا في هذا النوع من الأدب والشعر، ومن أهم رجال هذا المذهب فلاين Veline ومالا رمية Mallarme وبودلير Boudlalre.

المذهب السريالي:

لكن الاتجاه الرمزي لم يحقق النجاح بسبب كيفيته وطبيعته الخاصة وتمثيله لطبقة محدودة، وتجمعت ردود فعل أدت إلى ظهور المذهب السريالي في الأدب الشعري في منتصف القرن العشرين، فكان المذهب الرمزي وجهة نظر سيكولوجية بحتة، يعني كونه حقيقة أخرى غير الواقع، الأدب الرمزي يهدف إلى التعبير عن الحقائق الكامنة في اللاوعي وهو يمكن اللاوعي من التعبير عن المشاعر والأفكار بدون أن يزاحمه أي وازع خلقي وفني، وفي ١٩٢٤م أصدر اندري برتيان قرار هذا الاتجاه الأدبي، وأوضح فيه أن الأدب السريالي يرمي إلى إنشاء أدب جديد مع الانحراف التام عن التقاليد

الخلقية، ولكن هذا الاتجاه لم يستطع أن يمتد إلى مدة مديدة لأجل معارضته الفطرة والطبيعة.

المذهب الوجودي:

إن من أكبر الاتجاهات الأدبية وأكثره تأثيراً على الأدب الحديث هي الفلسفة الوجودية التي جذورها قديمة عميقة جداً، ولكنه جاء جان بول سارتر أخيراً في منتصف القرن العشرين، وخلع على الفلسفة الوجودية لباس الأدب، واعتبر الإنسان وجوداً مستقلا بذاته، ومنحه جميع أنواع التصرفات، وقام بترويج اتجاه "الذاتية"المطلقة، وفي القرن التاسع عشر حاول كيلجارد خلال إيضاحه علة الوجود الإنساني أن يضغط على أن الوجود الإنساني شيء مستقل بذاته، فالإنسان هو الذي خلق هذا الوجود وتمتع بتصرف في كل عمل، وبهذه الفلسفة الإلحادية لم يتأثر الناس فكرياً فحسب، بل انعكس ذلك كله على الأدب، ولعل السبب في ذلك هو الزمان الذي عم فيه هذا الاتجاه، فإنه كان عهد الصراع الفكري والاضطراب الطبيعي، وحدث آنذاك فراغ، كان لا بد من ملئه.

إن السبب الأكبر وراء شيوع الاتجاه الوجودي هو أنه أرخى الزمام لنزوات النفس وأهوائها بالاستغناء عن المثل الخلقية والضمير الإنساني، وألغى تصور الإله بتاتاً في الأذهان، ولذلك يرى النظام الخلقي، فإنه يعني الإيمان به إلا أن يجدد حرية الإنسان بالقيود الخلقية، ويعتقد سارتر: بأنه لا وجود حقيقياً في الإنسان للانحدار الخلقي والانحطاط بذاته، ولكنها أمور نسبية نقضي بها بعد مشاهدة الآخرين، فينبغي أن نوطد صلتنا بأنفسنا ونعتمد عليها دون أن نرى إلى الآخرين بل نعتقد الرؤية إلى الآخرين جريمةً، وكذلك يرادف تقديس الآخرين والتقيد بأي أصل خلقي إضرار الحرية والشخصية الذاتية.

إن هذه الوجهة للنظر للمذهب الوجودي نتيجة الانزعاج والثورة والفشل والتأسف والازدراء والكآبة والألم، وثمرة الشعور بأن الإنسان يعجز عن التعبير عن وجوده بوجه يتوخاه، فالهيئة والأحوال والمجتمع وتقاليد الأسرة وعاداتها هي التي تكون عرقلةً وعقبةً في الطريق، فكان السبب الأكبر وراء هذا الاتجاه الذي حمله سارتر هو الشعور بالحرمان، حيث تركت ويلات الحرب وآثار دمارها وفتكها تأثيراً بالغاً على فكره مما أداه إلى تقديم اتجاهه السلبي في صورة "الوجودية" كرد فعل، وإن رأيت بعين الواقع والبصيرة تجدها رد فعل لمركب النقص الهائل الذي وقع سارتر فريسته، فإنه عاش عاماً كاملا في الزنزانات في ألمانيا، وفي هذه الفترة ثارت في ذهنه وفكر عاصفة الثورة والازدراء والفشل العنيفة، حيث ركز جميع جهوده على بث مثل هذا الاتجاه المنهار الأساس الذي ينبعث في جومن الشعور بالفراغ، ولعب دوراً هاماً في تحرير الإلحاد واللاخلاقية، الحياة كلها من كل نوع من القيود الإنسانية والخلقية باسم الأدب الوجودي.

ومن أبرز حملة لواء هذا الاتجاه وأجدرهم بالذكر المفكر الفرنسي في القرن التاسع عشر مارسيل Marcel وجان بول سارتر، وألبركامو، واندريه جيد، وهيدجز، مارسيل وإن كان معتدلًا إلى حدما في أفكاره، حيث كان لا يرفض المثل الخلقية والإنسانية أمام الآخرين، ولكنه ينتهي كذلك في نهاية المطاف إلى منطلق من الإلحاد والحرمان، فإنه قام بدور عظيم في تلويث الوجود الإنساني بالأقدار والجرائم الخلقية.

المذهب البرناسي:

وفي القرن التاسع عشر جاء الشاعران الفرنسيان ليكونت وي ليسلي وتيوفل جويتر، ونزلا في الميدان ضد الاتجاه الرومانسي

والرمزي، وأنشأ اتجاهاً جديداً للأدب باسم الأدب البرناسي، في الواقع كان هذا الاتجاه رد فعل ضد العاطفية التي دخلت في الأدب.

كان أهل اليونان اتخذوا أصنافاً شتى من الآلهة الباطلة، وكان من بينهم شاعر يؤمن بإله له كان اسمه أبولو Apollo، وكان يعتقد أن إلهه في فن الشعر يسكن فوق جبل برناس Parnass، ومن هذا المنطلق فإن الشعراء الماديين الغربيين للقرن التاسع عشر سموا شعرهم بالبرناسية Parnassism لأجل إعطائه لون القدسية الفنية انتماء اً إلى ذلك الجيل وعرضوه على الناس كاتجاه أدبي مستقل.

وخلاصة هذا الاتجاه أنه ليس الأدب والشعر إلا مجرد أداة تسلية وآلة طرب، وهما لا يرميان إلى هدف بناء، وقد نُودي هذا الاتجاه، (الأدب للأدب"وسماه بعض الناس بالمذهب الأدبي) "أبولو" ويسمي أيضاً بالأدب البرناسي.

إننا ذكرنا جزء اً من الاتجاهات والمذاهب المادية حول الأدب، ولكنه يوجد الآن عدا ذلك كثير من النظرات والمذاهب الأدبية، وهي لا تزال في ازدياد دائم واتساع مستمر، فلنلاحظ أن هذه المحاولات التي تبذل باسم الأدب إنما هي مؤامرة مكثفة للقضاء على الأدب والقيم التي جاء بها الإسلام، لكن الأدباء المسلمين والمفكرين لا يتفطنون لها بل يقعون هم أنفسهم فريسةً لهذه المؤامرات، ويقدمون مساعدة غالية في إنجاح هذه المحاولات الهدامة.

أدب النثر العربي
بعد الحرب العالمية الثانية(*)

مستقبل أدبي لامع:

مع نهاية الحرب الكونية الثانية، استهلت في عام ١٩٤٥م، حياة أدبية جديدة في الشرق الإسلامي العربي، وكان قيام جامعة الدول العربية في نفس هذا العام مبعث نشاط وحيوية في الأوساط الأدبية والسياسية بوجه خاص، وقد ساعدت الظروف الواعية على نشأة جماعة من الأدباء والشعراء والكتاب العرب، ممن كانوا قد تنفسوا الصعداء، وبدأوا يحلمون بمستقبل لامع للأوساط الأدبية التي نهضت لبناء مجتمع أدبي واقعي أفضل لأول مرة في التاريخ الحديث.

نشاطات أدبية جديدة:

شهد هذا التاريخ الأدبي الحديث نشوء جو أدبي جديد عن طريق النشاطات الأدبية التي تمثلت في أشكال متعددة من الشعر والكتابة والصحافة، وعقد المواسم الأدبية والثقافية، وإنشاء ندوات ومجالس للآداب والفنون، وظهور أصناف جديدة من النقد والشعر والقصة والمسرحية، وأدب الترجمة ومدرسة المهجر الأدبية.

أدباء أسهموا في النهضة الأدبية الجديدة:

كان الطريق ممهداً مسلوكا نحو نهضة أدبية عامة، فسلكه الأدباء

(*) بحث قدم في مؤتمر قسم اللغة العربية بجامعة علي جراه (الهند).

الكبار وأصحاب الأقلام والثقافات المنوعة، فأسهموا في إثراء النثر العربي الأدبي بكتاباتهم وإنتاجاتهم الأدبية، مثل طه حسين وعباس محمود العقاد، وأحمد لطفي السيد وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيات، وأحمد زكي أبو شادي، ومحمد رضا الشبيبي، ومن إليهم من الأدباء البارزين، ممن كانوا في الصف الأول، ثم ظهرت جماعة من الأدباء الذين ساروا على درب الأدب، وتبعوا السابقين منهم في رفع لواء الأدب ونشر رسالته، منهم شوقي ضيف وكامل كيلاني ومحمد عبدالغني حسن وزكي المحاسني، ويوسف عز الدين وعيسى الناعوري ورشاد رشدي وعائشة بنت الشاطئ وغيرهم من شعراء المدرسة المهجرية نبغ منهم الشاعر القروي، وإلياس فرحات وإيليا أبو ماضي، ومن الشواعر اللائي أنتجتهن المذاهب الأدبية الجديدة من الرومانسية، والواقعية والرمزية نازك الملائكة، وجليلة رضا، وجميلة العلايلي، وروحية القليني، وعزيزة هارون.

كما نشط مع هؤلاء الأدباء أدب الترجمة من اللغات الغربية إلى اللغة العربية، وإن كان نطاقه محدوداً، ويذكر من أدباء الترجمة على سبيل المثال محمد عوض محمد ووديع فلسطين.

ثورة ٢٣/يوليو لعام ١٩٥٢م وأثرها السلبي على الأدب:

وقد كانت ثورة ٢٣/يوليو عام ١٩٥٢م في مصر ذات تأثير سلبي على الأدب العربي، فقد سلبت منه أصالة التعبير وروح الواقعية وصبغته بصبغة سياسية وطنية وقومية خالصة، وامتلأ الجو بالتغني بمفاخر مصر وبطولات العرب والدعوة إلى القومية والوحدة العربية، كما تحدث عن ذلك الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه: "دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه"؛ يقول:

"وقامت ثورة ٢٣/يوليو عام ١٩٥٢م فطبعت الأدب العربي بطابع كفاحي متميز، وأخذ الأدب يتغنى بمفاخر مصر وبطولات العرب ويدعو إلى الوحدة العربية والقومية العربية، ويهيب بالعرب أن يهبوا إلى مكافحة الاستعمار والصهيونية والشيوعية والدخلاء، وأن يتوجهوا اتجاهاً قومياً في أدبهم، وأن يُعنوا بمشكلات المجتمع العربي وتصويرها، وأن يعملوا ما في وسعهم لبعث الإيمان بالوطن والحرية في قلب كل عربي يعيش في بلاد العربية شمالاً وجنوباً وشرقاًوغرباً ".

مؤتمر الأدباء والقومية العربية:

لقد أثمرت هذه الثورة ثماراً للقومية العربية والوحدة العربية، فسادت نزعة القومية في البلدان العربية وأصبح الاعتزاز بها من أولويات الأدباء والأدب في مصر والأقطار العربية الأخرى، ففي عام ١٩٥٧م عُقد مؤتمر في القاهرة باسم: "مؤتمر أدباء العرب" حضره الأدباء من كل قطر عربي، واتفقوا على أن يكون الأدب حارساً للقومية ومتغنياً بأمجاد العرب وتراثهم وتاريخهم القومي، واتخذ المؤتمر توصيات حول هذا الموضوع الذي كان يستولى على المشاعر والعقول حكاماً وشعباً.

ولكي نطلع على هذه النزعة التي فرضت أو افترضها الأدباء على أنفسهم يحسن بي أن أنقل هذه التوصيات بنصها، وهي على ما يأتي:

توصيات المؤتمر حول القومية العربية:

أ. إن القومية العربية المعتزة بتراثها الأدبي تريد لأدبها أن يكون حارساً للقومية العربية وموجِّهاً لها، يسمو بها إلى ما يغني الفكر ويرهف الشعور، ويدفع إلى عمل، ولذلك يحرص المؤتمر على أن يتواصى الأدباء بالعمل على:

١. التعبير الصادق عن تجارب أمتهم ومواطنيهم تعبيراً يبرز خصائصهم القومية ويصور حياتهم وما يختلج فيها من آلام وآمال، ويغذي وجدانهم بالقيم القومية والإنسانية، ويردد نضالهم في سبيل الوحدة الشاملة، والتحرر الكامل.
٢. الحرص على أن تكون عناية الأدب بماضيه وحاضره سبيلاً إلى مستقبل أفضل لوطنه وقومه.
٣. الحرص على أن تتوافر في الآثار الأدبية القيم الفنية والجماعية.

ب. ولما كان الشعر إرثاً قومياً ثميناً، ويجب أن يأخذ هذا الإرث مكانه في الثقافة الأدبية العامة وفي ثقافة الشعراء بوجه خاص، فقد أوصى المؤتمر:

١. العناية بهذا التراث والاستفادة منه وكسب التجارب الجديدة له، حتى يمكن التعبير عن حياتنا القومية المتطلعة المتطورة.
٢. العمل على نشر ما لم ينشر من هذا التراث.
٣. العمل على إعادة نشرما يتعذر الحصول عليه.
٤. تيسير التعريف به عن طريق العرض والشرح والتقريب.
٥. تأكيد أهمية هذا الشعور في برامج الدراسة المختلفة.
٦. نشر مجموعات مختارة من الشعر القومي.

ج. وللنثر العربي بما توافر له من وسائل النثر والإذاعة وبتنوع الأشكال الجديدة التي اتخذها في القصة والرواية والمسرحية والمقالة والتأليف على اختلاف موضوعاته أثر بليغ في توجيه حياة الشعوب وفي تكوين الأجيال الفتية الناشئة، ولذلك يوصي المؤتمر بالآتي:

١. أن تعنى الآثار النثرية بتقوية الوعي القومي وإرهاف الشعور

واستشراف الغايات الإنسانية واستلهام القيم الروحية السامية وإيثار الخير العام مع الحرص على الإتقان والإجادة الفنية.

٢. أن يعنى الناثرون بإبراز السمات الإيجابية في الشخصيات والنماذج التي يصورونها وبخاصة تلك التي تعبر عن القيم العربية.

٣. أن تكون اللغة العربية الفصيحة هي أداة هذا النثر بكل أشكاله.

د. ويستطيع الناقد في المرحلة الحاضرة من حياة الأمة العربية أن يشارك مشاركة فعالة في التوجيه القومي بتجلية القيم الفنية والإشادة بالخصائص القومية والمثل الإنسانية وتعريف القراء بها، ولذلك يوصي المؤتمر بالآتي:

١. أن يأخذ الناقدون أنفسهم بالجد في أداء مهمتهم في عمق ونزاهة.

٢. ترجمة الآثار النقدية القيمة.

القومية العربية رسالة الأدب والأدباء:

وتنفيذاً لهذه الخطة حلت القومية العربية محل الصدارة لدى الأدباء والكتاب والصحفيين والأوساط السياسية والعلمية كلها، ومنهم من جعلها أساس الأدب ورسالة الأدب إيماناً منه بأن هتاف القومية العربية والدعوة إليها يعطي العرب الضمان الكامل للوصول إلى مرتبة الزعامة ويرفع رأسهم عالياً بين الشعوب المتحررة والمعسكرات العالمية، فلا بد من أن تكون القومية العربية نداء الدول العربية التي نالت استقلالها، وموضع عناية كبيرة للأوساط العلمية والأدبية والسياسية كلها.

وأخيراً أصبحت القومية العربية مفخرة الرجل العربي بوجه عام وأخذت صورةً لفلسفة دينية لها إله ونظام وجزاء وعقاب، ولها كل ما

للفلسفات والديانات والنظرات العقدية من الخضوع أمام الإله وأداء أركان العبادة له.

والواقع الذي كان خطراً كبيراً على العقيدة الإسلامية وأصبح ذلك معول هدم للقيم الدينية والسلوكيات النبيلة، بينما كان الأدب من معطيات الدين، وقام لتعزيز صلة الإنسان بالعقيدة، ورفع مستواه العقلي بالعوامل الأدبية النزيهة، ذلك أن الأدب بوسائله الفنية يتولى تبليغ رسالة الحياة نحو المجتمعات البشرية والتعبير عن الحياة والإنسان وبيان موقف الإنسان من حقائق وأسرار الكون.

الإمام الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي ورفع ثورة ٢٣/يوليو:

تلقى الإمام الندوي (رحمه الله) نبأ ثورة يوليو لعام ١٩٥٢م في مصر بشييء كثير من القلق، والخشية من نتائجها السيئة على العمل الإسلامي والجماعات الإسلامية التي كانت تعمل بغاية من النشاط في حقل الدعوة الإسلامية، ورأى أن موجة القومية العربية قد انطلقت كحركة دينية وفلسفة اجتماعية تعم أنحاء العالم العربي الإسلامي كلها، وتدعو إلى الإيمان بها كعقيدة دينية والاعتزاز بها كواقع قومي إذا تخلى عنه العرب فقدوا ثقلهم ووزنهم في ميزان السياسة والاجتماع، وأصبحوا عالة على الأمم والشعوب.

أدباء وكتاب يتحمسون لتقديس القومية العربية:

وقد انبرى كثير من حملة الأقلام والأدباء فوجهوا الدعوة إلى الإيمان بالقومية العربية واعتبارها عقيدةً دينيةً ودنبوةً مقدسةً.

فهذا الكاتب المصري الكبير والأديب الفاضل الأستاذ محمود تيمور، يقول عن القومية العربية:

"لئن كان في كل عصر نبوته المقدسة، فإن القومية العربية لهي نبوة

هذا العصر في مجتمعنا العربي، وإن كتاب العرب... في أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، فيزكونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم، ويؤثرونها ويفضلونها على الوحدة الإسلامية"[١].

ويقول الدكتور محمد أحمد خلف الله في مقال له بعنوان: "القومية العربية" كما ينبغي أن نفهمها:

"إن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية، إنها تشمل سكان العالم العربي جميعاً، أما الإسلام فلا يشمل هؤلاء السكان".

وجاء فيما قاله عمر الفاخوري في كتاب له: "كيف ينهض العرب":

"لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدء العربي ديانةً لهم، يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون والكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم والبروتوستات على تعاليم لوثر الإصلاحية وثوريو فرنسا في عهد الرعب على مبادئ "روسو" الديموقراطية، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك"[٢].

الإمام الندوي يعلق على مبدء القومية العربية:

ويقول الإمام الندوي تعليقاً على مبدء "القومية العربية":

"من المؤسف الغريب أن يفكر العرب القوميون في دائرة القومية العربية ويحصروا نشاطاتهم وكفاحهم في دائرة الشعوب العربية وأكثرهم وقادتهم مسلمون ديناً وعقيدةً، ويفكر الشيوعيون الملحدون في دائرة الإنسانية ويعتنون بطبقاتها الكادحة وبالعمال والفلاحين في كل بلد

---

[١] الأستاذ محمود تيمور في مقاله المنشور في مجلة: "العربي" الكويتية (عدد/٢٧١ بعنوان: (النثر والقومية العربية).

[٢] الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، للأستاذ محمد المبارك: هامش: ٤٠٧.

وصقع، وقد تجلى هذا الاختلاف في أسلوب التفكير في حفلة اتحاد نقابات العمال العرب بالقاهرة في ١٦/من مايو عام ١٩٦٤م حيث قال ضيف مصر "خرو تشوف" رئيس وزراء روسيا، وزعيم الشيوعية العالمي معلقاً على كلمة الرئيس جمال عبد الناصر: "إن سيادة الرئيس يُلح على الوحدة العربية ونحن الروسيون بالعكس، نفكر في قضية الوحدة في معان أوسع، إننا لا نؤسس الوحدة على تصور القومية، إننا نؤسسها على قوة الطبقة الكادحة".

إن العرب المسلمين كانوا أولى وأجدر بالتفكير العالمي وعنايته بصالح الإنسانية وسعادتها على أساس العقائد والقيم الإسلامية، وكانوا أحق أن يكونوا "عالميين" و"إنسانيين"، ولكنها طبيعة "الفكرة القومية" لا تسمح بالخروج عن دائرتها الضيقة، ولا تدع مجالاً للنشاط أو الحماسة لمصلحة عالمية واسعة" (العرب والإسلام).

إنشاء مؤسسة علمية وأدبية إسلامية:

هذه الانحرافات الأدبية والدينية التي كانت نتيجة ثورة يوليو ١٩٥٢م، والتي تولت إنتاج أدب ثوري لا ديني، وتغيير عقلية الأدباء والكتاب المسلمين، وأحدثت فيهم اضطراباً عقلياً وتشرداً فكرياً، إنما أقلقت سماحة الإمام الندوي ودفعته إلى التفكير في إنشاء مؤسسة إسلامية علمية وأدبية تقوم بصد تيار الانحراف الأدبي وتتكفل بإنتاج أدب إسلامي قوي جميل وتأليف كتب إسلامية ذات قيمة علمية بأسلوب عصري جذاب في لغات متعددة من العربية والإنجليزية والأردية والهندية وما إليها.

وعلى هذا الأساس وفق الإمام الندوي رحمه الله إلى إنشاء "المجمع الإسلامي العلمي" في مايو عام ١٩٥٩م، فكان من أهداف هذا المجمع.

أهداف المجمع الإسلامي العلمي:

إنتاج أدب إسلامي قوي جميل وتأليف كتب إسلامية ذات القيمة العلمية الكبيرة بالأسلوب العصري الجذاب، بلغات مختلفة من العربية والإنجليزية والأردية والهندية وترجمتها إلى لغات العالم الأخرى وطبعها في مظهر جميل جديد.

ذاك أن العالم الإسلامي والعربي أصبح بحاجة ملحة إلى إنقاذ الأدب من ربقة المادية اللادينية التي اكتسحت العالم الإسلامي بتأثير عوامل الحضارة الغربية، والأدب الغربي الذي يقوم على أساس التشكيك في القيم الإيمانية.

النزعة الأدبية الإسلامية:

على أساس هذا الشعور بهذه الأخطار الجسيمة المحدقة تبنى الإمام الندوي رحمه الله هذه النزعة الأدبية الإسلامية لمقاومة النزعات الهدامة في الأدب العربي.

وظلّت هذه النزعة الأدبية الواقعية تعمل عملها في واقع الحياة الأدبية بعد هذه الخطوة الأدبية الجريئة التي وفق إليها سماحته، ولكنه مازال يحس في أعماق قلبه وقرارة نفسه الحاجة الملحة إلى إنشاء مؤسسة أدبية إسلامية عالمية تتصدى لمقاومة النزعات الأدبية الهدامة التي كانت نتيجة العوامل الثورية المادية ونالت رواجاً وانتشاراً بين أوساط الأدباء والكتاب المسلمين في العالم العربي بوجه خاص.

ندوة عالمية للأدب الإسلامي:

وبناءاً على هذا الشعور المرهف قرر عقد ندوة عالمية للأدب الإسلامي في رحاب ندوة العلماء في الهند في الفترة ما بين ١٢ -١٤/ من جمادى الآخرة عام واحد وأربع مائة وألف الهجري الموافق ١٧

١٩م من أبريل عام واحد وثمانين وتسع مائة وألف الميلادي، ووجَّه دعوة إلى أدباء العالم الإسلامي للحضور فيها، ولما عقدت هذه الندوة بحضور رجال العلم والأدب والثقافة والضيوف القادمين من الأقطار العربية والإسلامية استقبلهم الإمام الندوي، ورحب بهم بكلمة ترحيبية تاريخية جاء فيها:

من كلمة ترحيب بالأدباء القادمين في الندوة:

"إن الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتغيَّر من الجمود والتقليد من أي مؤسسة علمية ومدرسة فكرية، إن الأدب الذي رضع بلبان الجدة والجرأة والذكاء والتذوق بالجمال، وارتفع أساسه بالتعبير الأدبي على حب الجمال في كل شيء، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد، في كل حديقة وروضة، وفي كل غابة وواحة، هذا الأدب قد وقع مع الأسف فريسة العصبية التقليدية، أصبح أسيرًا للعادات والرسوم، وقلّما نجد الأدباء والنقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم، أو يتخطون رسومه التي قررها هو، الأمر الذي جعل كل أديب يترسم خطى الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية، دون أن يطمح إلى زيادة أو ابتكار، أو تطوير في ذخائر النماذج الأدبية، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين للأدب والكتابة فيقلدهم كل أديب ومؤرخ تقليداً أعمى، ويجترّ آثارهم وأسلوبهم.

وما أصدق قول شاعر الإسلام والدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء، حيث قال: إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم. ولقد كانت ندوة العلماء أيضاً أول من نادى بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديد،

وغربلتها ونخلها وإثارة دفائنها وكنوزها، وإبراز محاسنها وبدائعها، ولو كانت في غير مظانها، وعند من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب والقدرة على التعبير وأبعدهم عن دست الأدباء والكتاب، كما نادت بوضع مناهج جديدة لتعليم اللغة العربية وآدابها، تعلم الدين والأدب في وقت واحد، وتطبع على السليقة العربية، وتثير المواهب الفطرية وتعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة ومسايرتها مع كل عصر وموضوع. لكل هذه الأسباب، ولهذه الركيزة الأدبية التاريخية لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي وتدعو إليها كبار الأساتذة والمعنيين باللغة العربية وآدابها والتربية الإسلامية ومناهجها، وكانت الاستجابة الكريمة التي لقيها منظمو هذه الندوة دليلاً على إخلاص الداعين وذوق المدعويين الذين قطعوا مسافات بعيدة، وتحملوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة، وتداول الآراء والفكر في هذا الموضوع الكبير الخطير"[1].

إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

ومن خلال هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي "تركز القرار على إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية" رئيسها الدائم كان سماحة العلامة الندوي، وقد قامت الرابطة على الأهداف التالية، والتفت حولها جماعة من الأدباء والكتاب، والشعراء من كل طبقة، وآلوا على أنفسهم بدعمها أدباً وكتابةً وجميع أصناف الأدب من النثر والنظم، والمسرحية والقصة والرواية والسيرة الأدبية، والتمثيلية المسموعة والمرئية.

أهداف الرابطة:

إن أهداف هذه الرابطة تشمل جميع جوانب الأدب والحياة في

---

[1] نظرات في الأدب: ص ٦٤.

ضوء العقيدة وعن طريق الكلمة الأصيلة الملتزمة، بعد أن كان الأدب قد أصبح مجهول الأهداف والغايات، وكان يسيطر على العالمين العربي والإسلامي أدب مزور بعيد عن روح الأدب ورسالته.

يحسن بنا أن نذكر هنا أهداف هذه الرابطة الأدبية العالمية وغاياتها ومبادئها العامة.

١. تعريف الأدباء الإسلاميين على أعدادهم وأجناسهم بعضهم ببعض وجمع كلمتهم وإقامة ال... قوة إسلامية سلاحها الكلمة الأصيلة الملتزمة بالإسلام.
٢. العمل على تأصيل نظرية الأدب الإسلامي، وإظهار الملامح السائدة في الأدب الإسلامي قديمة وحديثة.
٣. تحقيق مبدأ عالمية الأدب الإسلامي.
٤. العلم على تأصيل نظرية النقد الإسلامي على أن تتصف بالموضوعية والنصف والبعد عن القوالب المستوردة والأساليب المبهمة.
٥. رسم منهج إسلامي مفضل للفنون الأدبية الحديثة التالية:
   أ. القصة
   ب. المسرحية
   ج. السيرة الأدبية
   د. التمثيلية المسموعة
   ه. التمثيلية المرئية.
٦. الاهتمام بالتفسير الإسلامي للأدب.
٧. إعادة كتابة تاريخ الأدب العربي من وجهة نظر إسلامية.
٨. إظهار صلة الأدب الإسلامي الحديث بالأدب القديم، والرد على المحاولات الداعية إلى الانفصام بين أدب أمتنا في الماضي والحاضر.

٩. دراسة الأدب الإسلامي المعاصر في البلاد الإسلامية وإظهار الخصائص المشتركة للأدب الإسلامي في العالم.
١٠. القيام بدراسات موسعة لعدد من الأدباء الإسلاميين وبخاصة الذين صاغوا أدبهم بإحدى لغات الشعوب الإسلامية.
١١. تعريف الشعوب الإسلامية بآداب بعضها بعضاً بترجمة آثارها الأدبية إلى عدد من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى.
١٢. تشجيع الأدب الذي يهتم بقضايا المرأة المسلمة وتشجيع نتاج الأديبات المسلمات.
١٣. رسم منهج إسلامي لأدب الأطفال واليافعين والشباب.
١٤. التصدى للدعوات الأدبية المشبوهة والمنحرفة.
١٥. الدفاع عن حرية الفكر والتعبير بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية.
١٦. الدفاع عن حقوق الأدباء الإسلاميين المعنوية والمادية.
١٧. تهيئة وسائل النشر والتوزيع لأدباء الرابطة بجميع الوسائل الممكنة.

المبادئ التي تنطلق منها الرابطة في تحقيق أهدافها:

كما أن رابطة الأدب الإسلامي تنطلق في تحقيق أهدافها وأعمالها واختيار أعضائها من الالتزام بالمبادئ التالية:

١. الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون في حدود التصور الإسلامي لها.
٢. الأدب الإسلامي أدب ملتزم، والتزام الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية، ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم.
٣. الأدب طريق مهم من طرق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح

وأداء من ادوات الدعوة إلى الله والدفاع عن الشخصية الإسلامية.

٤. الأدب الإسلامي مسئول عن الإسهام في إنقاذ الملة الإسلامية من محنتها المعاصرة، والأدباء الإسلاميون أصحاب ريادة في ذلك.

٥. الأدب الإسلامي حقيقة قائمة قديماً وحديثاً يبدأ من القرآن الكريم والحديث النبوي، ومعركة شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم، مع كفار قريش، ويمتد إلى عصرنا الحاضر، ليسهم في الدعوة إلى الله ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه.

٦. الأدب الإسلامي هو أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها، وخصائصه هي الخصائص الفنية المشتركة بين أدب آداب الشعوب الإسلامية كلها.

٧. يقدم التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون كما نجده في الأدب الإسلامي أصولاً لنظرية متكاملة في الأدب والنقد، وملامح هذه النظرية موجودة في النتاج الأدبي الإسلامي، الممتد عبر القرون المتوالية.

٨. يرفض الأدب الإسلامي أي محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور أو الحداثة أو المعاصرة، ويرى أن الحديث مرتبط بجذوره القديمة.

٩. يرفض الأدب الإسلامي المذاهب الأدبية التي تخالف التصور الإسلامي والأدب العربي المزور والنقد الأدبي المبني على المجاملة المشبوهة، أو الحقد الشخصي، كما يرفض لغة النقد التي يشوهها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة، يدعو إلى نقد واضح بناء.

١٠. يستفيد الأدب الإسلامي من الأجناس الأدبية جميعها شعراً

ونثراً، ولا يرفض أي شكل من أشكال التعبير، ويعنى بالمضمون الذي يجده في طبيعة الشكل الملائم للأداء.

١١. إن رابطة العقيدة هي الرابطة الأصيلة بين أعضاء الرابطة جميعاً، ويضاف إليها آصرة الزمان الأدبية التي تعد رابطة خاصة تشد الأدباء الإسلاميين بعضهم إلى بعض، ووحدة المبادئ والأهداف التي يلتزمون بها.

كلمة ختامية:

وبعد، فهذه بعض المؤشرات إلى بعض النزعات الجديدة التي ظهرت في الأدب العربي، وبالتالي في النثر العربي بجميع أصنافه وألوانه بعد الحرب العالمية الثانية، وإن إسلامية الأدب لها دورها الكبير في إنقاذ الأدب من أيدي المزورين والمنحرفين الذين يبيعون ما لديهم من سلع تجارية كاسدة باسم الأدب، بأثمان رخيصة ولغايات أرخص.

والله ولي التوفيق

الباب الثاني

ساعة مع أعلام الشعر والأدب

الشاعر الذي أحببته-١[*]
(الشريف الرضي)

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى المعروف بالشريف الرضيّ، كانت ولادته في سنة تسع وخمسين وثلاث مائة ببغداد، وهو ينتمي إلى محتد عريق في المجد، وأصل أصيل في الشرف إذ ينتهي نسبه إلى أبي الشهداء وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة الحسين ابن على رضي الله عنهما.

نشأ في حجر والده أبي أحمد الحسين، واشتغل بالعلم، ودرس الفقه والفرائض وفاق فيهما وبرع في أكثر العلوم والآداب، وقال الشعر وهوابن بضع عشرة سنة، وهو يومئذ أبدع أبناء العصر بأدبه البارع وفضله الباهر، وقد رزقه الله حظاً وافراً من جميع المحاسن في صغره، وأبوه أحمد الحسين كان يتولّى نقابة الطالبين والحكم فيهم والإشراف على أمورالحج والمظالم بالناس، ثم ردّت هذه الأعمال إلى ولده الشريف الرضي ما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة من الهجرة.

كان الشريف الرضي يعرف قدره ومنزلته، وكان أبيّ النفس، عالي الهمة لا يخضع لأحد ولا يلتفت إلى الملوك وصلاتهم، وقد ردّ الرواتب التي كانت جارية على أبيه من الملوك والأمراء مع أنه قد اجتهد

---

[*] مجلة البعث الإسلامي، المجلد الثاني، يناير ١٩٥٦م.

بنوبُويه أن يقلبها وحملوه على إجابة هذه الصلات فما استطاعوا.

ومن هذه الناحية ما ذكره أبوحامد محمّد بن محمّد الأسفرائيني الفقيه الشافعي في قصة شرحها، وإني ألخصها ههنا تلخيصاً يدُل على عفّته البالغة والاعتزاز بنفسه: "قال أبو حامد: كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزيربهاء الدولة فدخل عليه الرضي فأعظمه وأجلّه، ورفع من منزلته وخلّى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف، ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو قاسم أخوالشريف الرضي فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإ كرام وتشاغل برقاع يقرؤها فجلس قليلا، ثم سأله أمراً فقضاه ثم انصرف، قال أبو حامد: فقلت: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهذا الأمثل والأفضل منهما، وإنما أبوالحسن شاعرٌ، قال الوزير: إذا خلا المجلس أجبتك عن هذا، فلمّا خلا المجلس طلب كتابين من الخادم فأحضرهما، فقال: هذا كتاب الرضي اتصل بي، إنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار، وقلت هذه في مثل هذه الحال، فردّها وكتب إلى هذا الكتاب، فأقرأه فاذا هومكتوب فيه: "إننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسنَ ممن يأخذن أجرةً ولا يقبلن صلة" وأمّا المرتضى فقد أصاب ملكا بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهما ثمنها دينار واحدٌ، فكتب إلي كتاباً في هذا المعنى قال أبو حامد: فقرأته فإذا هومكتوب فيه أكثرمن مائة سطرٍ يتضمن الخشوع والخضوع والاستمالة والهزّ والمطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم المذكورة، قال فخر الملك: فأيها ترى أولى بالتعظيم والتبجيل، هذا العالم الفقيه المتكلم الأوحد ونفسه هذه النفس؟ أم ذلك الذي لم يشتهر إلا بالشعر خاصة،

ونفسه تلك النفس؟ فقلت: وفّق الله سيدنا الوزير: ما وضع الأمر إلا في موضعه، ولا الملة إلا في محلها.

هذه المكانة السامية والنفس الأبية ساعدت الشريف الرضي فجعلت منه رجلاً فخوراً بعيد الأمل، سامي الغاية، عالي المنزلة، ينال الخلفاء بالنقد والتسامي إلى منزلتهم، ولذلك لم يكن ينفق مادّته الشعرية ولا يستخدمها في مدحهم وإطرائهم إلا إذا اضطر إلى ذلك فيمدح قليلا، ويفخر عليهم وعلى الناس بنسبه وآبائه كثيرًا، وإنّك لتعرف هذا في أبياته التي خاطب بها الخليفة القادر بالله:

مهلا أمير المؤمنين فإنّنا
في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدًا، كلا نا في المفاخر مُعرق
إلا الخلافة ميز تك، فإنّني
أنا عاطل منها، وأنت مطوّق

فلمّا سمع هذه الأبيات الخليفة القادر ما استطاع جواباً إلاّ أن قال: "على رغم أنف الشريف" فلم يكن أحد غير الرضي يخاطب الخليفة بمثل هذه الأبيات، ولم يكن الخليفة يجيب غيره بمثل ما أجاب.

ومن أروع أبياته فيما يقرب من هذا قوله:

رُمت المعالي فامتنعن ولم يزَلْ
أبداً ينازع عاشقاً معشوق
وصبرت حتى نلتهن ولم أقل
ضجرًا: دواء الفارك التطليق

قال صاحب اليتيمة: "وهو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت: أنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق"، وقال بعض من وصفه وكتب فيه: "كان شاعرا مُفلقاً فصيح النظم، ضخم الأ لفاظ، قادراً على القريض، متصرفاً في فنونه، إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشق فيه غباره، وإن قصد المراثي جاء سابقًا والشعراء متقطعة الأنفاس، وكان مع هذا مترسلاً، كاتبا، بليغا، متين العبارات، سامي المعاني، وكان منهجه في الشعر منهج الأقدمين من الشعر، وقيل: إنّ شعره أشبه بشعرالبحتري إلا أنّ البحتري لم يذهب في شعره مذهب الفخر والحماسة، وإنّه مال إلى العبث والمجون، وإلى القارئ نموذج من شعره يتوسم فيه الفخر والحماسة ويتجلى له فيه السموالعفة.

قال قصيدة حينما آلتْ إليه أعمال أبيه يهنئ بها أباه ويشكره على تفويضه أكثر هذه الأعمال:

انظر إلى الأيام كيف تعودُ
وإلى المعالي الغرّ كيف تزيدُ
وإلي الزمان نبا وعاوَدَ عطفه
فار تاح ظمآن وأورق عُود
قد عاود الأيام ماء شبابها
فالعيش غضّ والليالي عِيدُ
قد فات مطلوباً وأدرك طالباً
ومقارعوه على الأمور قعودُ

مـــا الســـؤدد المطلـــوب إلا دون مـــا
يرمـــــي إليـــــه السُـــــودَد المولـــــود
فـــإذا همـــا اتفقـــا تكسّـــرت القنـــا
إن غالبـــــا وتضَعْضَـــــعَ الجلُمـــــودُ

وله من قصيدة أخرى في وصف الطائع الله يذكر فيها الحال يوم القبض عليه وخروجه من الدار سليماً، وقد سلب ثياب أكثر الأشراف والقضاة وانتهبوا وامتحنوا فأخذ هو بالحزم ساعة ووقف على الصورة وبادر إلى نزول دجلة، وكان أوّل خارج من الدار وتلوّم حتى جرى عليه ما جرى، ويذكرغرضا آخرفي نفسه

ويشكوالزمان ويذمّ عمل السلطان:

لـــواعج الشـــوق تُخطـــيهم وتُصـــميني
واللـــوم في الحـــب ينهـــاهم ويغـــريني
ســلني عــن الوجــد، دانــي كــل شــارقة
يريشـــني الشـــيب والأيـــام تـــبريني
مـــن لـــي ببلغـــة عـــيش غـــير فاضـــلة
تكفّـــني عـــن أذى الـــدنيا وتكفـــيني
أخـــيَّ مـــن بـــاع دنيـــاه وزخرفهـــا
بصـــونه كـــان عنـــدي غـــير مغبـــون
قـــالوا أتقنـــع بالـــدون الخســـيس ومـــا
قنعـــت بالـــدون بـــل قنّعـــت بالـــدون
إذا ظننـــــا وقـــــدرنا جـــــري قـــــدرٌ
بنـــــازل غـــــير موهـــــوم ومظنـــــون

ومــن نجــاي يــوم الــدار حــين هــوى
غــيري ولم أخــل مــن حــزم ينجــيني
مرقــت فيهــا مــروق الــنجم منكــدرًا
وقــد تلاقــت مصــاريع الــردى دونــي
وكنـــــت أول طـــــلاّع ثنّيتهـــــا
ومـــن ورائـــي شـــرٌّ غـــير مـــأمون
مــن بعــد مــا كــان ربّ الملــك مبتســماً
إلى أدنيـــــه في النجـــــوي ويـــــدنيني
أمســيت أرحــم مــن كنــت أغبطــه
لقــد تقــارب بــين العــز والهــون
ومنظــر كــان بالســرّاء يضــحكني
بــأقرب مــا عــاد بالضــرّاء يبكــيني
هيهـــات اغـــترّ بالســـلطان ثانيـــة
قــد ضــلّ ولاّج أبــواب الســلاطين

الشاعر الذي أحببته-٢(*)

هذا، وإليك طائفة أخرى من مراثيه التي لا يكاد يوجد مثيلها في شعراء هذا العصر، وانظر في هذه الأبيات ما أحسن التصرف فيها وأجمل التعبير، قد قال أبومنصور الثعالبي: "لست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه" وله من قصيدة رثى بها أبا محمد بن أبي سعيد السيرافي، وكان من الأعيان الأعلام في العربية وما يتعلق بها، وتوفي بعد"الصاحب":

لم ينسنا كافي الكفاة مصابه
حتى دهانا فيك خطب مطلعُ
قرحٌ على قرح تقارب عهده
إن القروح على القروح لأوجعُ
وتلاحق الفضلاء أعدل شاهدٍ
إن الحمام بكل علق مولعُ

ومن قصيدة رثى بها والدته:

أبكيك لو نقع الغيل بُكائي
وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزّياَ
لو كان بالصبر الجميل عزائي

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد الثاني، فبراير ١٩٥٦م.

طــوراً تكــا ثرنــي الــدموع وتــارة
أوى إلى أكـــــــرومتي وحيـــــائي
كـــم عـــبرة موهتهـــا بأنـــاملي
وســـــترتها مُـــــتجملاً بردائـــي
أبـــدي التجلـــد للعـــدو ولـــو درى
بتململـــي لقـــد اشـــتفى أعـــدائي
فارقـــت فيـــك تماســـكي وتجملـــي
ونســـيت فيـــك تعـــززي وإبـــائي
كـــم زفـــرة ضـــعفت فصـــارت أنـــة
أتممتهـــــا بتـــــنفس الصـــــعداء
لهفـــان أنـــزو في حبائـــل كربـــة
ملكـــت علـــى جلادتـــي وعنـــائي
قـد كنـت أرجـو أن أكـون لـك الفـدا
ممـــا ألمّ فكنـــتِ أنـــتِ فـــدائي
وجـرى الزمـان علـى عوائـد كيـده
في قلـــب آمـــالي وعكـــس رجـــائي
وتفـــرق البعـــداء بعـــد مـــودّة
صـــعب فكيـــف تفـــرّق القربـــاء
وتـــداول الأيـــام يبلينـــا كمـــا
يبلـــي الرشـــاء تطـــاوح الأرجـــاء
كيـــف الســـلو وكـــلّ موقـــع لحظـــه
أثـــر لفضـــلك خالـــد بـــإزائي

ومن قصيدة أخرى رثى بها أبا منصور الشيرازي في سنة ثلاث

وثمانين وثلت مائة، وهي طويلة جدًا، وهذا مطلعها:

أي دمـــــوع عليـــــك لم تصـــــب
وأي قلـــــب عليـــــك لم تجـــــب

وكذلك رثى أبا إسحاق الصابي في سنة أربع وثمانين بقصيدة جيدة هي أحسن ديباجةً وأكثررونقاً وأجود لفظاً ومعنى، وإنها تحتوي على ثلاثة وثمانين بيتا، ولكن أورد ههنا بعضا منها يدل على بُعد شأوه في الشعر وعلومحلّه في كرم العهد:

أعلمــت مــن حملــوا علــى الأعــواد
أرأيــت كيــف خبــا ضــياء النــادي
جبــل هــوى لــوخرّ في البحــر اغتــدى
مـــــن وقعـــــه متتـــــابع الإزبـــــاد
ماكنــت أعلــم قبــل دفنــك في الثّــرى
إنّ الثّـــري يعلـــو علـــى الأطـــواد
هـــذا أبـــو إســـحق يغلـــق رهنـــه
هـــل ذا يـــد أو مـــانع أو فـــادي
لــو كنــت تفــدي لافتــدتك فــوارس
مطــروا بعــارض كــل يــوم طــراد
وإذا تـــــألّق بـــــارق لوقيعـــــة
والخيـــل تفحـــص بالرجـــال بـــداد
قــد كنــت أهــوى أن أشــاطرك الــردى
لكـــــن أراد الله غـــــير مـــــرادي
ثكلتْـــك أرض لم تلـــد لـــك ثانيـــاً
أنـــي ومثلـــك معـــوذ المـــيلاد

مـــن للبلاغـــة والفصـــاحة إن همـــي
ذاك الغمـــام وعـــبَّ ذاك الـــوادي
مـــن للملـــوك يجـــزّ في أعناقهـــا
بظـــبي مـــن القـــول البليـــغ حـــداد
مـــن للممالـــك لا تـــزال تلمّهـــا
بســـداد ثغـــر ضـــائع وســـداد
مـــن للمحافـــل يســـتزلّ رماحهـــا
ويـــردّ رعلتهـــا بغـــير جـــلاد
مـــن للمـــوارق يســـترد قلوبهـــا
بـــزلازل الإبـــراق والإرعـــاد

ثم لما تحوّل الحال وتُوفّي الصاحب بن عبّاد في سنة خمس وثمانين، وتعجب الناس من انقراض بلغاء العصر الثلاثة على نسق في ثلاث سنين رثاه أيضاً بقصيدة رائعة جميلة، ولكن لا يسع لها هذا المقام.

هذه بعض الأمثلة والنماذج التي أوردتها في هذا المكان، لعلّ القارئ يتوسم فيها من بلاغة الرضي وصناعته اللفظية وأسلوبه البلاغي ما فيه كفاية، وإذا نظرت فيها نظرة أدبية خالصة شعرت أيها القاري الكريم! بمنزلته في الأدب ومذهبه في الشعرواقتداره على اللغة وامتلاكه بنا صية البيان.

وله ديوان اعتنى بجمع شعره فيه، وأجود ما جمع منه مجموع أبي حكيم الحميري، وهو ديوان كبير يدخل في أربعة مجلدات كما ذكره صاحب اليتيمة، وهكذا صنّف كتاباً في معاني القرآن يتعذر وجود مثله، وهويدل على سعة اطلاعه في النحووالغة، وأصول الدين، وله كتاب في مجازات القرآن، ونهج البلاغة الذي جمع فيه خُطَب سيدنا

على بن أبي طالب رضي الله عنه وكتبه وأقواله، ولا يزال هذا الكتاب مثالاً رائعًا للأدب العالي والنثر الفائق، وذخيرة من ذخائرالأدب العربي، وإن لم يصح كل ما جاء فيه تاريخياً، وشك فيه المؤرّخون والناقدون، ولكن ذلك لا يقلل قيمته الأدبية ولا يمنع من الانتفاع به والاعتراف بفضله، ولئن صحّ أنّ للشريف الرضي نصيباً كبيراً في إنشاء بعض رسائل هذا الكتاب وخطبه، فلاشك إذن أنّه كان في الذروة العليا من البلاغة، ومن أكتب الكتاب في الإسلام، قد صدق الأستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه"تاريخ الأدب العربي"إذ قال:

"لوكان حقا ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية".

وقد توفي الرضي في المحرّم سنة أربع وأربع مأة، ودفن في داره بمسجد الأنباريين بالكوخ، وصلّى عليه الوزير فخرالملك أبوغالب، ومما رثاه به أخوه المرتضى بأبياته المشهورة التي من جملتها:

يا للرجال لفجعة جذمت يدي
وَودِدْت لو ذهبت على برأسي
ما زلت أصدر وردها حتى
أتت فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمنا فلمّا صمّمت
لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لله عمرك من قصير طاهر
ولرُبّ عمر طال بالأدناس

النابغة الجعدي
أسن شاعر مخضرمي في قصيدته الرائية(*)

لقد أنجب العصر الجاهلي شعراء فحولًا، تقوم عليهم دعامة أمة أسست حياتها على الفخر والمحامد، وهم وحدهم كانوا لسان الدفاع وحُماة الذمار ومسجلي المفاخر لبني قومهم، فكانوا يتفاخرون بذلك، ويتبارون فيما بينهم، وقد تجرُّ قصيدة واحدة قيلت في مفخرة قبيلة حرباً على أخرى إذا لم يكن عندها من يمدحها لشعره أويعمل في الثناء عليها قصيدة، وهنالك كان يحمي وطيس الشعر والحرب في وقت واحد، وكانت هذه الحرب قد تطول إلى أمد بعيد تجري فيها عيون الشعر العربي كما كانت دماء أبطالهم تملأ ساحة القتال.

ومنها كانت هذه الحروب ترجع إلى الجاهلية التي كانت الأمة العربية تعيش في وسطها، والرجعية التي لا تعرف معنى الهوادة والرحمة، والتي لا تدع لصاحبها مجالًا للتفكير والتأني، فقد حدبت على اللغة العربية وأفاضت خيراً كثيراً، إذ زادت في ثروتها الأدبية وكونت منها مكتبة كبيرة توزعت على أنواع الأدب وأساليبه، ولولاها لم تكن للشعر العربي هذه الروعة والجمال والسحر، ولم يكن له تلك القوة وذلك التأثير، ولما عمل في النفوس عمل السحر الحلال.

هناك عدد من شعراء الجاهلية قاموا بدور رائع فعال في الا تجاه

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد السادس، مارس وأبريل ١٩٦٢م.

الشعري الجاهلي، وأحسنوا إليه بأساليب شعرية بحتة، لا يرقى إليه الضعف والركاكة، مع نزاهة المعنى وبراعة التركيب وجمال الفن، ومن أولئك شاعرنا هذا الذي نحن الآن في تنوير بعض نواحي حياته.

هو النابغة الجعدي، وكنيته أبوليلى، واسمه قيس بن عبد الله، وقيل: حبان بن قيس بن عبد الله، وقال صاحب الأغاني: حسان بن قيس عبد الله على اختلاف بين رواة الأنساب والتاريخ، وهومن بني عامر بن صعصعة كان أحدأجداده يسمى جعدة بن كعب، وإليه ينسب هذا، والنابغة ليس اسمه، وإنما قيل: النابغة لأنه قال الشعر في الجاهلية ثم أقام مدة نحوثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ فقال الشعر وسمي النابغة.

نشأ النابغة الجعدي في الجاهلية وترعرع في وسط جاهلي لا يعرف للدين معنى، لكنه رغم ذلك كله نشأ على فطرة التدين وأعرض عن تقاليد أسرته التي تجاري القبائل في عبادة الأوثان وتباري في غوايتها وعماها.

ولكن النابغة الجعدي على رغم ما رآه في بيئته وأهله من خرافة وجهالة، وبالرغم من أنه إذا خرج عن تقاليدهم وعوائدهم يطعن بل وربما يطرد من قومه ويحارب، بالرغم من هذا وذلك ذكر في الجاهلية دين إبراهيم والملة الحنيفية ودعا الناس إليها، وصام للّه تعالى واستغفره وآمن بالتوحيد والبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وقال في الجاهلية قصيدة مطلعها:

الحمـــد للّـــه لا شـــريك لـــه

مـــن لم يقلـــها فنفســـه ظلمـــا

وهذا أول بيت من قصيدته التي تحتوي على ستة عشر بيتاً رواها ابن قتيبة في الشعراء، وفيها ضروب من دلائل التوحيد والمعرفة والإقرار

بالبعث والنشر والحساب والعقاب والجنة والنار، وذكر صاحب الأغاني رواية عن محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرني أبوحاتم قال أخبرنا أبوعبيدة قال: كان النابغة الجعدي ممن فكرفي الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وما يفعل بالعقل وهجر الأزلام والأوثان، ووفد الجعدي على النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً، وأنشده أول ما أنشده قصيدته الرائية الطويلة، وأصغى إليها النبي صلى الله عليه حتى إذا انتهى منها دعا له بالخير والبركة، وفيما يلي نبذة من قصيدته تلك والحوار الذي جرى بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم خلال إنشاده إياها. وكان من أول ما أنشده قوله فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلوكتاباً كالمجرة نيراً
وجاهدت حتى ما أحس ومن معي
سهيلا، إذامال لاح ثمت غوراً
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها
وكنت من النار المخوفة أحذرا

إلى أن قال:

وإنا قوم ما تعود خيلنا
إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا
من الطعن حتى تحسب الجوأشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردها
صحاحاً، ولا مستنكر أن تعقرا

بلغنـــا الســـماء مجـــدنا وســـناؤنا

وإنـــا لنرجوفـــوق ذلـــك مظهـــرا

وقد روى هذا البيت عبد الله بن جراد بتغيير في صدره:

علونـــا علـــى طـــر العبـــاد تكرمـــا

وإنـــا لنرجوفـــوق ذلـــك مظهـــرا

فلما بلغ إلى هذا البيت قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة! فقال: نعم إن شاء الله.

ولما أنشد قوله:

ولا خـــير في حلـــم إذا لم تكـــن لـــه

بـــوادر تحمـــي صـــفوه أن يكـــدرا

ولا خـــير في جهـــل إذا لم يكـــن لـــه

حلـــيم إذا مـــا أورد الأمرأصـــدرا

فقال له رسول الله صلى عليه وسلم: لا يفضض الله فاك! وهذا دعاء ظهر أثره في حياته فأصبح النابغة من أحسن الناس ثغراً، وكان إذا سقطت له ثنية نبتت مكانها أخرى، وكان فمه كالبدر المتهلل يتلألأ ويبرق.

وهذه قصيدة طويلة تحوي نحو مأتي بيت أنشد جميعها للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي من أحسن ما قيل من الشعر في الفخر بالشجاعة، بساطةً ونقاوة وحلاوة، مطلعها.

خليلـــي غضـــا ســـاعة وتهجـــراً

ولومـا علـى مـا أحـدث الـدهرأوذرا

ويروي "خليلي عوجا ساعة".

ومن جملة ما جاء في هذه القصيدة قوله :

تـذكرت والـذكرى تهـيج علـى الفتـى
ومـــن حاجـــة المحـــزون أن يتـــذكرا
نـــدا مـــاى عنـــد المنـــذر بـــن محـــرق
أرى اليـوم مـنهم ظـاهر الأرض مقفـرا
تقضـــى زمـــان الوصـــل بـــيني وبينهـــا
ولم يـنقض الشـوق الـذي كـان أكثـرا
وإنـــي لأستشـــقي برؤبـــة جارهـــا
إذا مـــا لقائيهـــا علـــى تعـــذرا
وألقـى علـى جيرانهـا مسـحة الهـوى
وإن لم يكونـوا لـي قبـيلا ومعشـرا
ترديـــت ثـــوب الـــذل يـــوم لقيتهـــا
وكـــان ردائـــي نخـــوة وتجـــبراً
حسـبنا زمانـاً كـل بيضـاء شـحمة
ليـــالي إذ نغزوجـــذاما وحمـــيرا
إلى أن لقينـا الحـي بكـر بـن وائـل
ثمـــانين ألفـــاً دارعـــين وحُسَّـــرا
فلمـــا قرعنـــا النبـــع بـــالنبع بعضـــه
بـــبعض، أبـــت عيدانـــه أن تكســـرا
ســـقيناهم كأســـاً ســـقونا بمثلـــها
ولكـنهم كـانوا علـى المـوت أصـبرا

إن هـذه القصيدة وحدها تكفي لمعرفة شخصية الشاعر، والعلـم بعلوكعبه في الشعر لما تتضمنه معانٍ عالية وأسلوب شعري رفيع، ثـم إنهـا

تمتاز بما نالته لدى النبي عليه الصلاة والسلام من حظوة وقبول عن القصائد الأخرى الكثيرة، وبذلك تتجلى النزعة الدينية التي كان الشاعر يحظى بها ويتمتع منها منذ الجاهلية، ولولا هذه النزعة لما غلب في المهاجاة مع شعراء عصره، وليس ذلك ضعفاً في مادته الشعرية، وإنما هي نزعته التي كانت تحول دون هجائه، فلم يكن يقدر على ذلك ويغلب.

إن شاعرنا هذا الجعدي غير الشاعر الجاهلي المعروف بالنابغة الذبياني، وأسن منه، لأن الذبياني كان مع النعمان بن المنذر، وكان النعمان بن المنذر بعد المنذر بن محرق، وقد أدرك النابغة الجعدي زمن المنذر بن محرق ونادمه، ذكر ابن قتيبة "عمر الجعدي مأتين وعشرين سنة ومات بأصبهان" ويؤيد ذلك ما أنشده لعمر بن الخطاب، وقال:

لبست أناساً فأفنيتهم
وأفنيت بعد أناس أناسا

ثلاثة أهلين أفنيتهم
وكان الإله هو المستآسا

وعشت بعيشين، إن المنون
تلقَّى المعايش فيها خِساسا

فحيناً أصادف غراتها
وحيناً أصادف منها شماسا

شهدتهم لا أرجي الحياة
حتى تسافوا بسمر كياسًا

فقال له عمر رضي الله عنه: كم لبثت مع كل أهل؟ قال: ستين سنة، عمر بعد ذلك إلى زمن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وبعده.

ذكر السجستاني في كتاب المعمرين، ونقل ما قاله من وفت له مائة واثنتا عشرة سنة:

مضت مأة لعام ولدت فيه
وعشر بعد ذاك وحجتان
فأبقي الدهر والأيام مني
كما أبقي من السيف اليماني
تفلل وهو مأثور جُراز
إذا جمعت بقا ئمه اليدان
ألا زعمت بنوكعب بأني
ألا كذبوا! كبير السن فاني
فمن يحرص على كبري فإني
من الفتيان أزمان الخنان

والخنان مرض أصاب الناس في أنوفهم وحلوقهم، وفي القاموس، الخنان كغراب: زكام الإبل، وزمن الخنان كان في عهد المنذر بن ماء السماء وماتت الإبل منه.

وفي الأغاني: سئل محمد بن حسيب عن أيام الخنان ما هي؟ فقال: وقعة لهم، فقال قائل منهم. وقد لقوا عدوهم. خنوهم بالرماح، فسمي ذلك العام بالخنان.

قال عمر بن شبة: كان النابغة الجعدي شاعراً مقدماً، إلا أنه كان إذا هاجى غلب، وهاجى أوس بن مغراء وليلى الأخيلية، وكعب بن جعيل فغلبوه، وهوأشعر منهم بمرات، ليس فيهم من يقرب منه، وكان قد خرج مع على رضي الله عنه إلى صفين فكتب معاوية إلى مروان،

فأخذ أهل النابغة وماله فدخل النابغة الجعدي على معاوية وعنده مروان وعبيد الله بن مروان، وارتجل:

من راكب يأتي ابن هند بحاجتي
على النأي والأنباء تنمي وتجلب
ويخبر عني ما أقول ابن عامر
ونعم الفتى يأوي إليه المعصب
فإن تأخذوا أهلي ومالي بظنة
فإني لأحرار الرجال مجرب
صبور على ما يكره المرء كله سوى الظلم
إني إن ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلى مروان فقال: ما ترى؟ قال: أرى أن لا ترد عليه شيئاً، فقال: ما أهون عليك أن يقطع على عرضي ثم ترويه العرب، أما والله إن كنت لمن يرويه، أردد عليه كل شئي أخذته، وفعل.

وأقحمته سنة فدخل على عبدالله بن الزبير رضي الله عنه في المسجد الحرام يستميحه ما يقيم به أوده، ويزيل عند مرارة الجدب والمحل، ومدحه بأبيات، وهي.

حكيت لنا الصديق لما وليتنا
وعثمان والفاروق فارتاح معدم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى
دجى الليل جواب الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانباً ز عزعت به
صروف الليالي والزمان المصمصم

فقال له ابن الزبير: هون عليك أبا ليلى! فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، أما صفوة ما لنا فلآ ل الزبير، وأما عفوته فإن بني أسد بن عبدالعزى تشغلها عنك وتيماً معها، ولكن لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول صلى الله عليه وسلم، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم، فأعطاه ما استعان به في حاجته من قلائص وفرس وبر وتمر وثياب.

وفي تاريخ الإسلام للذهبي: أن الجعدي قال أبياتاً، ثم دخل بيته فلم يخرج منه حتى مات، وهي:

المـــــرء يهـــــوي أن يعـــــيش
وطـــول عمـــر قـــد يضـــره
وتتـــــابع الأيـــــام حتـــــى
مـــا يـــري شـــيئاً يســـره
تفنـــــى بشاشـــــته ويبقـــــى
بعـــــد حلـــــوالعيش مـــــره

وقد نسب بعض المؤرخين هذه الأبيات إلى النابغة الذبياني، وهو أبعدها قياساً، والله أعلم.

قدامة بن جعفر
وخدماته النقدية(*)

عاش أبو الفرج قدامة بن جعفر في بغداد في القرن الثالث الهجري ولد في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري، وتوفي في عام ٣٣٧هـ بين كوكبة من الأدباء والنقاد، ومن أبرزهم أبو العباس ثعلب والمبرد وصاحب الأغاني وأبو سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم.

والده كان نصرانياً، فنشأ على دين أبيه، وتعلم اللغة العربية ودرس الثقافة الإسلامية وقرأ الفقه والمنطق والفلسفة والرياضيات، ولكن غلب عليه علم اللغة والأدب والبلاغة ونقد الشعر، فمال بتأثير ذلك إلى الدين الإسلامي شأن عدد من الأدباء كابن المقفع وعلي بن زين، وأسلم على يد الخليفة المكتفي بالله حتى توظف في دواوين الأموال وتولى أعمالاً ذات أهمية في الخلافة العباسية يوم ذاك.

كان غزير العلم، منفرداً في الصنعة البلاغة، شفاف الطبيعة، بارعاً في النقد الأدبي، شهد بذلك جهابذة العلم والأدب، يقول المسعودي: "إن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، كان حسن التأليف، بارع التصنيف، موجز الألفاظ، مقرباً للمعاني".

ويقول ياقوت الحموي: "إن قدامة قرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب، ثم قرأ صدراً صالحاً من المنطق، وهو لائح على

(*) بحث قدم في مؤتمر قسم اللغة العربية بجامعة علي جراه الإسلامية (الهند)

ديباجة تصانيفه، واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر".

ويقول الخطيب البغدادي: "هو من مشايخ الكتاب وعلمائهم، وكان وافر الأدب، حسن المعرفة، وله مصنفات في الكتابة وغيرها".

اشتهر قدامة بن جعفر بالنقد الأدبي وخاصة في نقد الشعر، فقد ألف كتاباً في هذا الموضوع باسم "كتاب نقد الشعر" فحدث فيه عن الأساس الذي يقوم عليه بناء الشعر، وتعرض للكلام على الخصائص والفنون الشعرية، ويرى أن جمال الشعر وحسنه إنما هو في التعبير الفني الجميل سواء كان المعنى شريفاً أو وضيعاً، فمن رأيه أن فحاشة المعنى في نفسه ليست مما يزيل جودة الشعر، وقد شرح في كتاب نقد الشعر أسس النقد الشعري فقال: قوام الشعر أربعة أشياء: اللفظ، والوزن، والقوافي، والمعاني، ينبع من هذه الأربعة جوانب أربعة: وهي اللفظ مع المعنى، واللفظ مع الوزن، والمعنى مع الوزن، والمعنى مع القافية، ومن ثم كانت أسس نقد الشعر عنده ثمانية، فكانت الناحية الفنية عنده هي الأصل في نقد الشعر مهما كان روح الشعر.

أما كتابه الثاني الذي من أهم مصنفاته فهو "كتاب الخراج وصناعة الكتابة" ولم يؤلف إلا بعد ما مر على اشتغاله بالوظيفة في دواوين الأموال نحو عشرين عاماً، نراه خالياً من العبارات المسجعة والجمل المزدوجة، وهذا مثال مما كتبه في الخراج عند ذكر ثغور الإسلام والأمم والأجيال:

"الأمم والأجيال المخالفة للإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه وغايات أعماله، منهم المتقارب من دار مملكته ومنهم المتباعد عنها، وكانت ملوك الطوائف الذين يملكهم ذو القرنين يودون الإتاوة إلى ملك الروم خمس مأة وإحدى عشرة سنة، إلى أن جمع أرد شيرين بابك

المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة، فمنح حينئذ الإتاوة التي كانت الفرس تؤديها إلى الروم، فينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرًا منهم للروم، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته، والله الموفق للمصلحة بقدرته"[1].

إنه أقبل على دراسة المنطق والفلسفة اليونانية، فأثر ذلك على عقليته التي تجلت آثارها في كتابه "نقد الشعر"، حيث تحدث عن فضائل الناس فجعل مقياس الفضائل المتفق عليها عند أهل الآداب (ويريد بأهل الآداب أدباء اليونان) أربعة أشياء، وهي: العقل، والشجاعة، والعدل، والفقه، وذلك هو مقياس الفضيلة عند اليونان من غير شك، أما العرب فتختلف مقياس الفضيلة عندهم وخاصة العرب الجاهليين الأقحاح، لأنهم يعتزون بشرف النسب، ورجاحة العقل والجود والسخاء والشجاعة والكرم، يقول في كتابه "نقد الشعر:

"ما كانت فضائل الناس من حيث إنهم أناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما هو عليه أهل الآداب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والفقه، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً، كأنه يشير بذلك إلى منهجه في النقد إشارة سريعة، وإن جماعة من أئمة الأدب والبلاغة ممن جاؤا بعده ناقشوا في هذا الموضوع، مثل المرزباني في كتابه "الموشح"، وأبو هلال العسكري في كتاب "الصناعتين"، وابن سنان الخفاجي في "سر البلاغة"، والآمدي في "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وابن رشيق القيرواني في كتابه "العمدة" واعتبروا المنهج الذي وضعه قدامة في النقد سُلماً نحو تدوين البلاغة العربية وأصول النقد والبيان وإن كان

---

[1] كنوز الأجداد لكرد علي، ص: ١٥٢، مطبعة الترقي بدمشق.

ذلك يعارض منهج نقاد العرب والأدباء الكبار المعروفين كالأصمعي، وابن الأعرابي وابن سلام والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز وغيرهم".

ويحسن بنا الآن أن ننتقل إلى معرفة منهجه النقدي في الشعر الذي يحتوي على الأسس الثمانية المذكورة أعلاه، وهي أولاً المفردات الأربعة:

١. اللفظ
٢. الوزن
٣. القوافي
٤. المعاني

١. إنه ينعت اللفظ فيقول: أن يكون سمحاً سهل مخارج الحرف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو عن البشاعة، وقد ضرب لذلك أمثلة من الشعر منها أبيات لجبهاء الأشجعي:

أمـــن الجميـــع بـــذي اليفـــاع ربـــوع
راعـــت فـــؤادك والربـــوع تـــروع
مـــن بعـــد مـــا بليـــت وغيَّـــر آيهـــا
قطـــر ومســـبلة الـــذيول خريـــع
جوالـــة بربـــى المـــلاء غزليـــة
برغـــامهن مربّـــة زعـــزوع
يـــا صـــاحبي ألا ارفعـــاني عنـــه
يشـــفي الصـــداع فيـــذهل المرفـــوع

وأبيات أخرى:

ولمـــا قضـــينا مـــن منـــى كـــل حاجـــة
ومسّـــح بالأركـــان مـــن هـــو ماســـح

وشُـدت علـى دُهـم المهـارى رحالنـا
ولم ينظـر الغـادي الـذي هـو رائـح
أخـذنا بـأطراف الأحاديـث بيننـا
وسـالت بأعنـاق المطـي الأبـاطح

٢. أما الوزن فينعته بأن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها، وإن خلت من أكثر نعوت الشعر، منها قصيدة حسان رضي الله عنه:

مـا هـاج حسـان رسـوم المقـام
ومظعـن الحـي ومبنـى الخيـام
والنـؤى قـد هـدَّم أعضـاده
تقـادم العهـد بـواد تهـام
قـد أدرك الواشـون مـا حـاولوا
فالحبـل مـن شـعثاء رث الرمـام
كـأن فاهـا ثغـب [1] بـارد
في رصـف تحـت ظـلال الغمـام

ومثله أبيات المنخل بن عبيد اليشكري:

ولقـد دخلـت علـى الفتـاة
الخـدر في اليـوم المطـير
الكاعـب الحسـناء ترفـل
في الـدمقس وفي الحريـر

[1] الغدير في ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه.

فـــــــــــدفعتها فتـــــــــــــدافعت
مشـــــي القطـــــاة إلى الغـــــدير
وعطفتهـــــــــا فتعطفـــــــــــت
كعطـــــف الغصـــــن النضـــــير
ولثمتهـــــــــا فتنفســـــــــــت
كتـــــنفس الظـــــبي الغريـــــر
ولقـــــد شـــــربت مـــــن المدامـــــة
بـــــــــالكبير وبالصـــــــــغير
فـــــإذا ســــــكرت فـــــإنني
رب الخورنـــــــق والســـــــدير
فـــــإذا صـــــحوت فـــــإنني
رب الشـــــــويهة والـــــــبعير
وأحبهـــــــــا وتحـــــــــبني
ويحـــــب ناقتهـــــا بعـــــيري
يـــــا هنـــــد مـــــن لمتـــــيم
يـــــا هنـــــد للعـــــاني الأســـــير

٣. ويصف القوافي فيقول:

"تكون عذبة الحروف، سلسلة المخرج، وأن تقصد لتصير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه، ربما صرعوا أبياتاً أخرى من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره، وأكثر من كان يستعمل

ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر، فمنه قوله:

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل

بسـقط اللـوى بـين الـدخول فحومـل

أفـاطم مهـلاً بعـد هـذا التـدلل

وإن كنـت قـد أزمعـت صـرمي فـأجملي

ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجلـي

يصـبح ومـا الإصـباح منـك بأمثـل

٤. المعاني التي يدل عليها الشعر يجب أن تكون مواجهاً للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب، إنه قسم المعاني إلى أقسام:

(١) المديح

(٢) الهجاء

(٣) المراثي

(٤) التشبيبة

(٥) الوصف النسيب

ثم تحدث بعد ذلك عن الأوصاف التي تعم جميع المعاني الشعرية وهي:

أولاً: صحة التقسيم، ثانياً: صحة المقابلة، ثالثاً: صحة التفسير، رابعاً: صحة التتميم، خامساً: المبالغة، سادساً: تكافئو معينين، وهو ما يسمى بالطباق، سابعاً: الالتفات.

ويحسن بنا بعد ذلك أن نشير إلى أسس النقد الأدبي الأربعة الباقية وهي:

أولاً: اللفظ مع المعنى، ومنه المساواة والإشارة، والإرداف يعني الكناية، والتمثيل.

ثانياً: اللفظ مع الوزن، ويريد بذلك أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بينت، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضهاعن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها.

ثالثاً: المعنى مع الوزن، ويعني بذلك أن تكون المعاني تامة مستوفاةً لم تضطر بإقامة الوزن إلى نقصها عن الواجب ولا إلى الزيادة فيها عليه، وأن تكون المعاني مواجهةً للغرض.

رابعاً: المعنى مع القوافي، والمراد به أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له، وملائمة لما مر فيه.

ومن أنواعه، التوشيح، وهو أن يكون أول البيت إذا سُمع عُرف آخره وبانت له قافيته.

الإيغال: ومعناه أن يأتي الشاعر بالمعنى التام في البيت، من غير أن تكون للقافية فيما ذكر صنعه، ثم يأتي بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره من المعنى في البيت، كما في بيت أمرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا

وأرجلنا الجزع الذي لم يثقب

فقد أتى بها امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية، وهي قوله "الذي لم يثقب" وهو لم يكتف بذلك في بيان منهجه النقدي في الشعر، بل وقد زاد البيان وضوحاً بذكر العيوب التي تتداخل في اللفظ والمعنى والوزن والقوافي، وتحدث عن العيوب العامة التي توجد في المعاني، وهي كفساد الأقدام وفساد المقابلات وفساد التفسير، والاستمالة والتناقض، كما أشار إلى العيوب التي توجد في ائتلاف

اللفظ والمعنى وذلك كالإخلال يعني أن يترك الشاعر من اللفظ ما يتم به المعنى إذ يزيد في اللفظ ما يفسد المعنى.

هذا ملخص آرائه ومناهجه في نقد الشعر، وذلك إن دل قائماً يدل على نبوغه وبراعته وفكره الشامل في موضوع نقد الكلام شعراء.

أما كتابه "نقد الشعر" وكتابه " جواهر الألفاظ" فقد شك مؤرخو النقد الأدبي في عزوهما إليه، وزعموا أنهما منحولان لم يؤلف إلا بعده في القرون المتأخرة في القرن السادس أو السابع الهجري، ومنهم من ألحق هذا الكتاب بكتاب نقد النثر وجعله كتاباً واحداً، كما قد أشار إليه محمد كرد علي في "كنوز الأجداد" يقول:

"أما كتابه الذي سموه نقد النثر ونسبوه إليه فهو مما لم يكتبه، والظاهر أنهم نحلوه إياه، ومن يتأمل عباراته يجدها أشبه بعبارة أهل القرن السادس والسابع، وبلاغته موضع النظر فقد رأيناه في مقدمة "نقد الشعر" يدخل على موضوعه مباشرة وفي مقدمة "نقد النثر" أسجاع تنادي بأن الكتابين لكاتبين متخالفين في الطريقة والأداء.

وكذلك نشك في نسبة كتاب "جواهر الألفاظ" الذي عزى إليه، وفي جريدة تآليفه ذكر لكتاب الألفاظ من تأليفه، وبضعة سطور في مقدمته تحمل الناقد على الحاق كتاب "جواهر الألفاظ" بكتاب نقد النثر.

قال في "كتاب الجواهر" وهو كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة، وأبواب موزونة، بحروف مسجعة مكنونة، متقاربة الأوزان والمباني، متناسبة الوجوه والمعاني، تونق أبصار الناظرين وتروق بصائر المتوسمين، وتتسع بها مذاهب الخطاب، وتنفسح معها بلاغة الكتاب، لأن مؤلف الكلام البليغ الفسيح، واللفظ المسجع الصحيح، كناظم الجوهر المرصع، ومركب العقد

الموشح يعد أكثر أصنافه، ليسهل عليه إتقان رصعه وائتلافه"[١].

وبذلك كله نستطيع أن نحكم في قدامة بن جعفر أنه عالم البلاغة والأدب أكثر منه يكون نقاداً، فقد كان من معاصريه علماء النقد في العصر العباسي ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء، وله في هذا الكتاب لمحات دقيقة حول موضوع النقد الأدبي، فإن الناقد لا يستطيع بشعوره النقدي الدقيق أن يميز بين صحيح الشعر الجاهلي ومنحوله فحسب، بل يستطيع أن يميز بين شعر قبيلة دون أخرى.

وابن المعتز كان أديباً ناقداً ألف كتابه "البديع"ووضع فيه مصطلحات لأنواع البديع ونقد المعيب منه، وقد اهتم في كلامه وحسن التشبيه، وكان من معاصري قدامة بن جعفر.

ومن معاصريه ابن قتيبة الذي دعا إلى عدم التفريق بين قديم الكلام وجديده، ذاك أن الشعر القديم قد يكون جيداً، وقد يكون معيباً، وكذلك الشعر المحدث قد يكون جيداً وقد يكون رديئاً، ولكنه يفرق بين الروح العلمية والذوق الأدبي، ويعتقد أن اشتغال الأديب بالمصطلحات الفلسفية لا يفيده في الأدب، بل هو يضعف ذوقه إلا أن الشيء الذي يربى ذوقه حفظ النماذج الأدبية وتقليدها.

ولكن قدامة بن جعفر أسهب الكلام في نقد الشعر، وأتى في الموضوع من تفاصيل اللفظ والمعنى والوزن والقافية ما لم يأت به أحد من معاصريه، وقد أسس كلامه في نقد الشعر على المرئيات اليونانية وفلسفة أرسطاطاليس وأمثاله من اليونانيين، ممن لم يكونوا من البلاغة العربية وآدابها في عير ولا نفير.

ومن هنا وجه إليه كثير من الأدباء والنقاد ومؤرخي الأدب العربي

---

[١] كنوز الأجداد، ص: ١٥١–١٥٢.

انتقادات لاذعة على ما قام به قدامة من بيان نظرته نحو البلاغة والنقد بتأليف كتابيه "نقد الشعر" و"نقد النثر" كما قد أشار إلى ذلك أديب العربية، صاحب النقد الأدبي الدكتور أحمد أمين، يقول:

"جاء بعد ابن المعتز قدامة بن جعفر، وألف كتابيه المشهورين في نقد النظم ونقد النثر، وهما إلى البلاغة أقرب، وهو المسئول الأول عن وجود المصطلحات البلاغية وتحجرها وفقد روحها، كما أنه المسئول الأول عن تسرب بعض آراء أرسطو وأمثاله من اليونانيين في البلاغة اليونانية إلى البلاغة العربية وآدابها، فقد عرّف الشعر وذكر محسناته ثم ذكر عيوبه، وهو لم يزد في النقد شيئاً، ولا في وضع قواعده، إلا أشياء شكلية ومصطلحات رسمية، وقد تأثر به علماء البلاغة الذين جاءوا بعده أمثال السكاكي صاحب مفتاح العلوم، وسعد الدين التفتازاني"[1].

وبالمناسبة يحسن بنا أن لا ننسى الإمام النقادة أبا القاسم الحسن ابن بشر بن يحيى الآمدي البصري المتوفى في عام ٣٧٠ من الهجرة، وقد أدرك عصر قدامة بن جعفر، إنه ألف كتابه المعروف بالموازنة بين أبي تمام والبحتري، وكان له باع طويل في الأدب، وذوق رفيع في معرفة الجيد من الردي وتمييز الحسن من القبيح، فكانت له مكانة عالية في النقد الأدبي، وذلك ما يظهر بموازنته بين الشاعرين الطائيين، كما كان ذا اطلاع واسع على كلام من سبقه من الشعراء، وكان ذا حكم عادل في نقد الكلام يشعر بمسئوليته نحو هذا العمل الدقيق والموقف الجرح، فكان لا ينحاز من جانب إلى جانب بغير مبرِّر نقدي، وبدون سبب واضح.

وكذلك لا ينبغي أن نتناسى ونحن نتحدث عن خدمات قدامة النقدية والبلاغية الشاعر أبا الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا (٣٢٢هـ)

---

[1] النقد الأدبي لأحمد أمين، ص: ٤٨٠، طبع دار الكتاب العربي بيروت.

بمدينة أصفهان، وكتابه المعروف "عيار الشعر" الذي نقضه الآمدي بكتابه "نقض عيار الشعر"، وقد سبق ابن طباطبا، قدامة بن جعفر في تاريخ النقد الأدبي، وهو يعتبر حلقة متممة لما جاء به ابن قتيبة من النظرات والأحكام في مقدمة كتابه " الشعر والشعراء" فهو يعرّف الشعر بأنه كلام منظوم، والنظم هو الذي يفرق بينه وبين النثر، وبهذا التعريف للشعر لم يتعرض لذكر الأوزان والقوافي التي أسهب فيها قدامة بن جعفر، ولكنه يتفق معه فيما صرح به من أن الشاعر لا يحتاج إلى العروض إذا كان صحيح الذوق وعفيف الطبع، إن ابن طباطبا يتحدث عن ثقافة الشاعر في كتابه " عيار الشعر" فينص على أن الشاعر لفي أشد حاجة إلى التوسع في علم اللغو وفهم الإعراب وفنون الآداب ومعرفة أيام الناس وأنسابهم، والاطلاع الكامل على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه، إنه يعتقد أن ثقافة الشاعر تكمن في:

"التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب فيه"[1].

ولا شك فإن قدامة بن جعفر قدم في كتبه أسساً نقدية فذةً، واعتمد بذكائه النادر على أمور دقيقة في المعاني، وأكد للناس أن النقد يقوم على نظرية محدودة، إنه أراد أن يكون معلم النقد في تاريخ الأدب العربي على غرار أرسطو طاليس في تاريخ المنطق، فكان يزعم أنه أول مؤلف للنقد الأدبي، ولكن ابن طباطبا كان قد سبقه في هذا المجال بالذات كما مرت الإشارة إلى ذلك.

---

[1] عيار الشعر لابن طباطبا، ص: ٤.

ابن قتيبة الدينوري
في "أدب الكاتب"(*)

ابن قتيبة صاحب مآثر علمية خالدة، "الذي أسدى". بمؤلفاته وآرائه السديدة في العلم والأدب واللغة. إلى كتاب اللغة العربية وأدبائها منةً لها قيمتها الغالية، شهد بعلو مكانته وعظم منزلته كبار الناقدين من العلماء ورجال التاريخ، وناهيك من "أدب الكاتب" الذي حوى بين دفتيه كنزاً ثميناً من المعارف الأدبية واللغوية، فرفع مستوى الكتاب وأصحاب اليراع، ونفخ في كتاباتهم وآثارهم روحاً من الحياة والنمو، ومنحهم منهجا قويماً من تقويم اليد واللسان.

ولوأن ابن قتيبة لم يكن قد عمل سوى هذا الكتاب القيم شيئًا لكان ذا منة عظيمة على اللغة العربية، وكان قد أدى خدمة جليلة كفته فخراً وثناءاً.

ولكنه لم يفعل ذلك، وإنما ظل دائباً على إخراج كل مفيد مهم، ووضع كل دقيق وجليل مما يدافع به عن الإسلام ولغته، ويرفع به شأن العلم وآدابه، ومن أهم ما وفق إلى تأليفه هو كتاب "أدب الكاتب" الذي أشاد به ابن خلدون، وقال عنه: "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (الأدب) وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي على القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها".

(*) مجلة البعث الإسلامي، رجب المرجب ١٣٩٣هـ.

وجاء أبو منصور العبدوني من الشعراء العرب، واطلع على كتاب "أدب الكاتب" فأنشد في مدحه قصيدة قال فيها:

أدب الكاتـــــــــــب عنـــــــــــد
مالــــــــه في الكتـــــــــب نــــــــد
لـــــــــيس الكاتــــــــب منـــــــه
إن إراد العلـــــــــــــم بــــــــــــد

ولا شك أن لهذا الكاتب منزلةً ليست لكل كتاب ألف في ذلك العصر أوبعده، إنه كتاب مهد لكثير من المتأدبين طريقاً إلى تعلم اللغة وفروقها ومحاسنها، ومواضع استعمالها من الكلام، وقد تأدب به عدد كبير من علماء هذه الأمة، ووجدوا فيه من الغناء والزاد مالم يجدوه في غيره من كتب معارف اللغة وفقهها، ولذلك ظل الكاتب موضع عناية العلماء والأدباء وأهل اللغة، ومركز استفادتهم ودراستهم، في كل زمان ومكان، ولم يفقد على طول عهده نقاء الديباجة ورواء الموضوع وغزارة المادة وضخامة التأثير.

كان ابن قتيبة كشأن الأدباء ورجال العلم في عصره. يريد أن يجعل اللغة والشعر والأخبارفي متناول طبقة الكتاب الذين بدأ شأنهم يعلوبما كان لهم من المنزلة المرموقة في تصريف أمور الدولة يوم ذاك أدب الكاتب[١].

ولتحقيق هذه الأمنية ألف كتابه "أدب الكاتب" لوزير الدولة العباسية في عصره (القرن الثالث الهجري) أبي الحسن عبيد اللّه بن يحيي بن خاقان، وقدمه كهدية للوزير المذكور.

يقول ابن قتيبة نفسه وهويتحدث عن سبب تأليف هذا الكتاب في مقدمته:

---

[١] ترجمة ابن قتيبة ص ٦٠.

"فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين، أما الناشئي منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس، ليدخل في جملة المجدودين، ويخرج عن جملة المحدودين، .... فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أووصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر في شيئ من القضاء وحد المنطق، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهولا يعرف معناه، وعلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، وهولا يدري من نقله، قد رضي عوضاً من الله ومما عنده بأن يقال: "فلان لطيف" و"فلان دقيق النظر" الخ[1].

إن هذا الكلام يفيدنا ما أراده المؤلف من تأليف كتابه، ويبين لنا تحرقه على ما أصاب اللغة وأهلها في زمانه من الخمول وعدم الاعتناء بها، الذي أدي تأثيره إلى التجرؤ بالاعتراض على كتاب الله والانتقاص من قيمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا غرو فإن ابن قتيبة حاول جهده أن يتفادى الخطر الماثل أمام عينه من هدم أساس الكتاب والسنة بتحريف لغتهما، وتشويه وجههما الجميل، لقد وجد في كل زمان من أساء إلى هذه اللغة، وأراد أن يتقلص ظلها، ويتهون شأنها، ولكن قيض الله لكل زمان كذلك، من قاوم مثل هذه الاتجاهات المضادة، وشن حربًا على أوكار الهدامين المخدوعين.

وكان ابن قتيبة أحد هؤلآء المدافعين عن حوزة الإسلام ولغة القرآن، الذي استخدم مواهبه الغنية كلها في تقويم اللغة العربية وإبداء

---

[1] مقدمة أدب الكاتب. ص ٢–٣.

محاسنها، والذي صبَّ كفاءاته العلمية والأدبية في إصلاح ما كان قد فسد من لهجات الناس، وشاع بينهم من التحريف والتغيير في معاني الكلمات، واستعمالها في غير مواضعها الصحيحة، وذلك ما أشار إليه في مقدمة هذا الكتاب.

تحدث المؤرخون عن ابن قتيبة كثيراً، فلم ينسوا أن يذكروا جانبه الممتاز في حياته من حسن الدفاع عن الكتاب والسنة ضد النزعات الفلسفية، إنه شارك المناقشات الكلامية التي استعر لهيبها في عصره، ونافح عن أهل السنة حتى ظنه فريق من الناس لسان أهل السنة، وقد اتهم من قبل أعدائه بالزندقة، فألف كتابًا في الرد على الشبهة يدرأ به في صدور المتقولين الخراصين، ويدفع عن نفسه تهمة الزندقة التي رموه بها[1].

أما الأبواب والمواضيع التي احتوى عليها كتابه "أدب الكاتب" فهي كثيرة منوعة تفتح على الدارس أبواباً مبتكرة في اللغة، ونواحي جديدة فيها مما لم يطلع عليه قبل، فمثلا يعرف قبل كل شيء ما يضعه الناس في غير موضعه من الكلمات والتعابير، ويتأكد من صحة إطلاقها ومواضع استعمالها في الكلام، كما يتعلم الفروق اللطيفة في معاني الألفاظ وطريق استعمالها.

وكذلك يتحدث عن كتابة الكلمات، ويدل على ما هو الصواب في طرق كتابتها، ويسمى ذلك بتقويم اليد، كما يتحدث بتفصيل بالغ عن الألفاظ التي تتقارب في اللفظ والمعنى وتلتبس، فربما يأتي الخطأ في وضعها موضعها الصحيح وعن الكلمات التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها، عن الأفعال والمصادر التي يخطئ الناس في النطق بها.

وهكذا استطاع ابن قتيبة أن يشحن كتابه بالمعارف اللغوية الثمينة، والعلوم الأدبية حتى أصبح ثروة غالية في مكتبة الأدب واللغة، وتراثا

---

[1] ترجمة ابن قتيبة ص: ٧.

علميا ضخماً، لولاه لم يكن للأدباء والكتاب هذا الشأن، ولم يتحل جيد الأدب بهذه الحلية الفاخرة، وكانت المكتبة الأدبية تنقصها جوهرة غالية من بين كنوزها وخزائنها، ولكن ابن قتيبة أحسن بهذا العمل إلى نفسه أولاً وإلى طبقة الأدباء والكتاب ثانياً، وهويستحق به الثناء العاطر من جميع الأجيال الماضية والآتية، ويخلد عمله هذا مع الزمان، وينال حقه من المباركة والاهتمام في كل عصر وجيل.

اشتهر ابن قتيبة بتصانيفه الجيدة في فنون العلوم وفقه اللغة، فمن أهمها بعد "أدب الكاتب" "الأشربة" "إصلاح الغلط" "إعراب القرآن" "الأنواء" "تأويل مختلف الحديث" "التسوية بين العرب والعجم" "التفقيه" "جامع النحو" "الخيل" "الرد على المشبهة" "طبقات الشعراء" "عيون الأخبار" "غريب الحديث" "غريب القرآن" "جامع الفقه" "المسائل والجوابات" "معاني الشعر" "مشكل الحديث" "مشكل القرآن" "الميسر والقداح".

وابن قتيبة اسمه عبد الله، وكنيته أبومحمد، وأبومسلم بن قتيبة، ولد في مستهل رجب بالكوفة في سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م)، وسكن في بغداد مدة حيث حدث عن إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد، وأبي حاتم السجستاني، وتولى قضاء الدينور ثم اشتغل بالتدريس في بغداد فتخرج عليه جماعة من العلماء وكبار الأدباء، وقد اعتبره العلماء إمام مدرسة بغداد النحوية التي خلطت بين مذهبي البصريين والكوفيين (ترجمة ابن قتيبة: ص: ٦).

وبما أن أباه ولد بمروسمي المروزي، وولد هوبالكوفة، فقيل له: الكوفي، وتولى قضاء الدينور (بلدة من بلاد الجبل ردحًا من الزمان دعي بالدينوري)، ونسب إلى جده قتيبة فقيل له: القتيبي.

وكانت وفاته إثر صيحة صاحها، فأغمي عليه، ومات من غير مرض سابق، رحمه الله رحمة واسعة.

ابن المقفع
وحياته الأدبية (*)

يرجع الفضل الأكبر في تهذيب الكتابة العربية وتصبيغها بالصبغة الفنية الفكرية إلى ابن المقفع الذي نبغ في القرن الثاني الهجري، وعالج الكتابة العربية عن طريق النقل والترجمة، فهو أول من تولى إدخال الثقافة الفارسية إلى الآداب العربية، وتوسيع نطاقها الفكري، وذلك لأنه كان يتقن اللغتين الفارسية والعربية، ويجمع بين الثقافتين أيضاً، وقد ساعده على إجادة اللغة العربية والتمكن منها ولاؤه الذي كان في آل الأهتم، وهم من ذوي الشهرة الأصيلة بالفصاحة العربية وأصحاب النبوغ فيها.

تمتع عبدالله بن المقفع بالذكاء والألمعية، فلم يلبث أن نبغ في اللغة العربية وحمل لواء الشهرة فيها، فبدأ ينقل بعض الثقافات والآداب الأجنبية من خير ما عرفه إلى العربية بأسلوب فكري رشيق، أضفى على الكتابة العربية لوناً جميلاً من الفن والعلم، وصبغها بالنمط الفكري الفلسفي، ومن هنا كان عبدالله بن المقفع زعيم الكتاب في عصره الذي تثقف بالثقافة الفارسية والعربية معاً، وعرف اللغة العربية بالعقل الفارسي، وقرَّبها إليه.

تولى ابن المقفع نقل العلوم من ثقافات أجنبية إلى اللغة العربية، وتناول كل موضوع جيد اطلع عليه لكي ينقله إلى العربية سواء كان

(*) مجلة البعث الإسلامي، رمضان المبارك ١٣٩٤هـ.

ذلك موضوعاً دينياً أوتاريخياً أوأدبياً، وقد نشط في مجال النقل والترجمة إلى أنه لم يترك أي تراث تاريخي أوأدبي اتسم بسمة الأهمية بوجه ما إلا وقد تصدَّى لنقله إلى العربية، بأسلوب عربي رصين، ولغة عربية عذبة، فقد ترجم كتاب مزدك الذي كان يدور في الغالب حول البلاط الإيراني وتقاليده وحولياته، وكتاب "خداي نامه" في سير الملوك الفرس، وكتاب "آيين نامه" وهو في أنظمة الملك والدولة الساسانية، و"كتاب التاج" في سيرة أنوشروان، ولكل هذه الكتب أهميتها وقيمتها. (اقرأ كتاب "الفن ومذاهبه" للدكتورشوقي ضيف).

هذا عدا ترجمته لكتاب "كليلة ودمنة" من اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) إلى اللغة العربية العذبة، وهذا الكتاب هو في الحقيقة ميزان صحيح لمعرفة مدى مقدرة ابن المقفع على الترجمة، وامتلاكه زمام اللغة العربية، حيث إن الترجمة تفوق مراراً النص الفارسي الذي ترجمه في الرشاقة والفصاحة وفي التعبير العربي الجميل، وهونموذج رفيع للأدب والبلاغة، وللنثر العالي الذي يخلومن كل تكلف وصناعة وتعقد وفلسفة، ولولا هذا الكتاب فيما أعتقد لصعب على مؤرخي الأدب العربي الحكم في كتابة ابن المقفع، واعتباره في طليعة الكتاب الذين ابتكروا الكتابة العربية ومنحوها أسلوباً واضح الديباجة ناصع البيان.

أما ما نقله ابن المقفع إلى العربية، وذلك مثل الأدب الكبير والأدب الصغير، واليتيمة ورسالة الصحابة، فليس من المحقق المؤكد أن هذه الرسائل كلها مترجمة منقولة، بل قد يمكن أن تكون من بين ما ألفه من الكتب أو يكون طابع الترجمة غالباً عليها، إلا أنها لاتصوِّر نفسية ترجمته العربية، وتعبيره العربي مثل ما نجد ذلك في كتاب "كليلة ودمنة" واضحاً جلياً لا يشوبه شك.

ومن العوامل التي ساعدته على معالجة الكتابة العربية وإيجاد نمط جديد فيها هوشغله منصب "الكاتب" في دواوين الأمراء والحكام، وذلك في حين كان التطور الحضاري قد وجد إلى المجتمع سبيلًا، وبدأت الحياة تقبل أساليب حديثة في جميع النواحي، فكان لا بدَّ من تطوير الكتابة في هذه الدواوين، التي كانت تعتبر مصدر الحركة والنمو للمجتمع، والمجتمع كان يعتمد عليها في كل صغير وكبير، وتقلد أسلوبها في كل مجال، وابن المقفع هوخير من يقوم بعملية التطوير هذه، وهوأعرف بمتطلبات الظروف ومخاطبة العقول بلغة تكون أقرب إليها وبتعبير يكون أكثر تأثيراً فيها.

فليس بدعاً أن يكون ابن المقفع رئيس كتاب العربية وزعيم أدبائها في عصره الذي نشأت فيه الكتابة العربية، وخطت نحو التقدم والازدهار بخطى واسعة، وذلك بما تمتع به من سليقة أدبية رفيعة، ومؤهلات كبيرة لصوغ الكلمات في قالب الأدب الجميل، ونقل الثقافة بمفهومها الواسع إلى اللغة العربية التي كانت تعتبر مفتاحاً إسلامياً لفتح العالم كله، وهل كان العالم إذ ذاك إلا خاضعاً للعقل الإسلامي، فاتحاً صدره لتلقي كل أدب إسلامي عربي، كان يمتلك مستقبل الشعوب والأمم في ذلك الوقت، ولذلك فإن ابن المقفع لم يبخل بنقل كل رطب ويابس من العلوم والثقافات التي كان يطلع عليها في الفارسية إلى العربية، بل كان حافل النشاط والقوة في هذا المجال، واستطاع أن يغني اللغة العربية بعلوم اللغات الأجنبية من الفارسية واليونانية والهندية، ويوسع مكتبتها بإدخال التراث الأجنبي.

لا أقول: إن ابن المقفع فعل كل ذلك حباً للإسلام ورفعاً لشأن لغة، ولكني أقول: إنه أدرك الاتجاه الأدبي السائد، وأراد أن يسايره بل

ويتقدمه خطوةً واحدةً، حتى يتمكن من القيادة الأدبية والزعامة الفنية في عصر هوعصر الانتقال في الحقيقة، وعصر الانتفاضة الأدبية والكتابية، وقد سبقه صديقه عبد الحميد يحيى في هذا المجال فكان منافساً له، وحاول أن يحقق ما فاته اعتماداً على ثقافته التي كانت أوسع من ثقافة عبدالحميد، وثقة باطلاعه على الكتابات الفارسية واليونانية، فاستخدم سلاح النقل والترجمة، وتمسك به كمبدء وغاية لهما قيمتهما وأهميتهما.

يقول الدكتور شوقي ضيف حين يتحدث عن ابن المقفع في كتاب "الفن ومذاهبه" ما يؤيد هذا الرأي: "وعلى هذا النحو حمل ابن المقفع إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقرية الإ يرانية قبل الإسلام، مما كان له أثر كبير في الآداب العباسية سواء منه ما اتصل بالأخلاق، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية، ولم يكتف بذلك فقد نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطوكما نقل كليلة ودمنة، وعنه نقلت إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة، كما نقلت إلى اللغات الأوروبية".

وهذا العامل هو أقوى العوامل التي ساعدت ابن المقفع على حمل لواء الكتابة العربية وصبغتها بالفن والفكر، وإبرازها في حلة قشيبة من الجمال والكمال، والأسلوب الناصع الرصين، في عصر لم يكن للناس عهد بهذا اللون الجميل في الأدب العربي والنمط القوي للكتابة العربية.

يقول الأستاذ محمد كرد على في كتابه القيم "أمراء البيان" وهو يصف ناحيته الأدبية والبيانية: "فكانت ألفاظ ابن المقفع منخولةً في منخل دقيق نفي الزؤان مما يحمل، أما التراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام، ثم هو ليس في

ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف، يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشبية، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز، ومعانيه كلها ناصعة، وألفاظ كلها فصيحة، على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب إلا بضم أجزائه في سلك واحد لتصح المعاني، وهي سر البلاغة والفصاحة والروعة، وهذا كان ظاهراً في كلام ابن المقفع، وهو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق".

ولكي يري القارئ الكريم ابن المقفع الأديب في مرآة كتاباته ننقل إليه مقتطفات منها: يوصي أحد الكتاب باتباع الطريقة التي أوجدها في الكتابة ويحثه على استعمال السهل من الألفاظ، يقول:

"عليك بما سهل من الأ لفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة، إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقال: إن خير الأدب ما حصل لك ثمره وبان عليك أثره.

وسئل عن البلاغة فقال: "اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها مايكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما كاد شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها مايكون ابتداء، ومنها ما يكون جواباً، ومنها مايكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج" ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة".

أما كتاب "كلية ودمنة" فهوفي الحقيقة نموذج حي لأسلوبه الرائع وتعبيره الناصع وأدبه الرفيع، وهوالميزان العدل لوزن كلامه العربي وتقدير قدرته الكتابية، اقرأ القطع الآتية:

"ومن ذا الذي غالب القدر، ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً من الأمور فلم يبطر، ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم، ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلم، ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان، ولقد صدق الذي قال: مثل السلاطين في قلة وفائهم لمن صحبهم، وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم كمثل كلما فقدت واحداً جاء آخر".

"إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فأنت لاشك بمن سواه أغدر، وأنه إذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع، فلا شييء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له، وحياء يصطنع عند من لا شكر له، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسر يستودع عند من لا يحفظه، فإن صحبة الأخبار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً، وإذا مرت بالنتن حملت نتناً"

"لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه كالمسك يخفى ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح، الرجل ذوالمروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضاً، والرجل الذي لامروءة له يهان وإن كان غنياً، كالكلب يهون على الناس وإن عس وطوف".

هذا قليل جداً من كثيره، وهو يكفي لمشاهدة الوجه الذي حمله ابن المقفع في أدبه البليغ وكتابته الجيدة وقدرة تعبيره الذي بلغ إلى آخر مدى من الروعة والجمال.

الشاعر وليد الأعظمي
وديوانه الزوابع(*)

عرفت الشاعر وأنا في بغداد عام ١٩٥٨م، وما كنت أعرف إلا اسمه، وغير أنه من الشعراء الشباب الذين ينتمون إلى الشعر، دون أن تكون لهم معرفة بالشعر ومنهجه ورسالته، والذين يعصرون كل مواهبهم وكل طاقاتهم لقرض بيت أو أبيات، ولا ينتهون بها إلى هدف في الحياة، فضلاً عن أن يؤدوا بها رسالة أو يُسدوا بها فراغاً في المجال الشعري أو يأتوا بابتكار في المعنى، ومثل لم يعثر عليها الشعراء الذاهبون، ويزعمون بالرغم من هذا أنهم أتوا مما لم يؤت به أحد، وزادوا إلى الثروة الشعرية زيادةً قيمةً، وأن لهم فضلاً كبيراً على أمتهم ولغتهم، لأنهم يملكون يداً طولى في القريض والإنشاد.

كنت أعرف أن الشاعر وليد الأعظمي من هذه الطبقة النابتة التي نبتت في العهد القريب، وليس لها نصيب من الشعر ولا علم بمغزاه، وإنما هو ترديد كترديد الببغاء، صوت ولكن بدون معنى، صياح ولكن بغير فائدة.

فلما قدر لي أن أسافر إلى بلاد الشاعر ومسقط رأسه، وأتيح لي أن أراه من كثب، وأعيش معه ومع إخوانه مدةً من الزمان، تغير فيه رأيي، وبدأت أرى فيه غير ما كنت أراه قبل الاتصال به، وتجلت فيه

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ١١، يوليو ١٩٦٢م.

غير التي كنت أعرفها وأسمع عنها من بعيد، وإذا هوشاعر مطبوع يقول ما يفعل، ويقرض ما يؤمن به، وينشد ما يرضى به ضميره ويرتاح إليه قلبه، وإذا هوشاعر مؤمن مخلص مجاهد، يؤمن بمبدأ ويتفانى في سبيله، ولا يخاف لومة لائم ولا غضبة عدو، أوصديق، إنه لا يقول إلا ما يدعو إليه إيمانه، ويوحي إليه ضميره، ولا يقول إلا عن أعماق قلب وأغوار نفس، فيه عتاب وتأنيب، ودعوة وصبر، ومرابطة وجهاد، وكفاح ونضال، وفيه نقد لاذع على الأمراء ورؤساء الدول وزعماء الحكومات الذين يبيعون ضميرهم وإيمانهم وشعبهم ووطنهم عوضاً عن دراهم مزخرفة ودنانير رنانة، والذين يستبد لون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فعرفته شاعر القلب والعقيدة والوجدان الذي يقول في صراحة وجرأة، ويأتي بالمعاني السامية الروحية التي تنبع من قلبه وإيمانه، يقول فيعمل ويدعو إلى المبدأ الذي يعيش فيه، ولا يعيش إلا في روح عالية مؤمنة، نفس مسلمة فلا يهمه ما يهم شعراء العصر الحديث من كثرة الشعر وتبوء المنصب الشعري العالي بين أكفائهم، وإنما يؤدي واجباً يشعر به نحو دينه وأمته ووطنه ومجتمعه، ويريد أن يستخدم مواهبه في أكرم محل وأحسن مجال، ألا وهو الإسلام والوفاء له في عهد، قلّ فيه أنصاره وتنكّرله أصدقاؤه في العالم الإسلامي، وعم له الجفاء من كل جانب، فأ صبح غريباً بين أهله وذويه، وصدق فيه قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء".

فطوبى للأخ الشاعر وليد الأعظمي الذي أراد أن يبذل كل جهوده وطاقاته من علم وشعر ومادة ومال في سبيل هذا "الغريب"، ويبقى له ابناً وفياً في عهده المظلم دون أن يرجو من هذا الوفاء نفعاً على

يد زمانه أو يرقب فائدة من أولئك القُطعان البشرية الذين يستحيون بنسبتهم إلى الإسلام ويستنكفون عن إبداء المظاهر الإسلامية في حياتهم ومعيشتهم، فإنه لا يتلقى من هؤلاء إلا النكران، ولا يجد من دونهم إلا ملامةً وتأنيباً وعتاباً وسخطاً.

وهذا الديوان "الزوابع" الذي أخرجه شاعرنا حديثاً، يمثل تماماً شخصية الشاعر وتفكيره في الإسلام وعواطفه الجياشة وشعوره الفياض نحوه، ويصور نظرياته وخواطره وخلجاته التي يعيش فيها كما يعبر عن حبه مبادئ الإسلام وحنينه إلى تطبيقها في العالم.

قرأت هذا الديوان من أوله إلى آخره، فكانت انطباعاتي التي لمستها في أول وهلة بعد فراغي عن القراءة هي أن الشاعر يعيش في ألم واضطراب لما يراه من سوء حال الأمة الإسلامية وفقدان الوعي المؤمن منها، فيحب أن يرى شريعة الإسلام تحكم من أقصى العالم إلى أقصاه مرة أخرى، ويرى راية الإسلام مرفوعة خفافة في كل مكان، وتعود شريعة الغاب أدراجها ويتقهقر العدوان والظلم والاستعمار، فلا يجد إلى الإنسان سبيلا.

هذه هي انطباعاتي نحو هذا الديوان، وأظن أن كثيراً من قرائه يوافقونني في هذا الرأي، وقد لا يخلفون في تقرير النقطة الأساسية التي يدور حولها هذا الديوان.

هذا فضلاً عن أسلوبه الشعر ي الممتاز وروعة بيانه التي زادت من قيمته وبهائه، فلا يتحدث إلا بلغة ممتازة راقية المستوى، عذبة النغمات، حلوة الإيقاع، بديعة الإشارة، جميلة التعبير، وقد توسعت خلال دراستي لديوانه أن هناك معاني قوية تحمل في طياتها انسجامًا ومطابقة تامة، تربط البيت بالبيت وتؤلف القطعة بالقطعة، بالرغم من

أنه شعر يتحدث عن معانن غير معاني الغزل والتشبيب، وعدا عواطف الطبيعة والجنس التي تغنى بها كثير من شعراء العصر الماضي والحاضر، والتي يدور كل كلامهم وشعرهم حولها.

ولا أفضل الغزل والعاطفة عن الشعر، ولا أعتقد فيه القدسية والسمو إلى هذا الحد الذي لا يدخل فيه الغزل والتشبيب والعاطفة، بل وأعتقد كل هذه المعاني جزءاً من الشعر، وقد لا يحسن الشعر بدونها، فهي من عناصر الشعر وعوامل القريض، وما الشعر إلا تصوير الخيال والعاطفة.

إن شعر وليد صورة صادقة لنشاطه وجهاده وحبه وحنانه، ومثال رائع لألم المؤمن وقلق الداعي، فهو يتقلب بين هذه الآ لام ويُحس بشدتها، فلا يكاد يمسك شعوره، ويسد خاطره، وتفيض ينابيع من القلق والألم وتسطر معاني رقيقة شعرية فتسود صفحات وترفع صوته مدوياً إلى إخوته الذين تنكروا له وقاطعوه، فتهدأ آلامه ويقف قلقه شيئاً، ويبقى على هذه الحالة لا ينقشع عنه سحابها إلى أن يسقي مطره الأرض المجدبة فتنشط للنبات والإنبات من جديد.

فيتوقع من الجيل الجديد، ويرجو من الشباب ثورة في تفكيرهم ومشاعرهم، وانقلاباً في عقولهم وآرائهم، وهو يحثهم على ذلك حيناً لآ خر، ويبعثهم على ثورة عامة شاملة وانقلاب فكري عام، حتى ينتهي عهد الاستعمار الذي استعمر العقول والقلوب، ويدوي صوت الإسلام في العالم عقيدةً وأخوةً ونظاماً.

وبهذه المناسبة السعيدة التي أسعد فيها بكتابة هذه الكلمة الوجيزة المناسبة أحب أن ألفت نظر أخي المفضال الشاعر وليد الأعظمي إلى شاعر الإسلام محمد إقبال ودراسة نظريته في الإسلام وفلسفته، فإنه إذا تشرب فلسفته وسار مسلكه في الشعر يستطيع أن يجعل إنتاجه الشعري أكثر نفعاً

وأعم فائدة، وهو بذلك يقدر على خدمة الإسلام على نطاق أوسع.

ولكن يحتاج في ذلك إلى دراسة كلامه وفلسفته في شعره حتى يطلع على منهجه ورسالته وطريقة توجيهه.

وهناك مؤلفات عديدة تساعده في الاطلاع عليه، منها "روائع إقبال" ذلك المؤلف القيم الذي يشرح فلسفة إقبال ورسالته وتفكيره، أخرجه الأستاذ الكبير الداعية الإسلامي السيد أبوالحسن على الحسني الندوي منذ مدة، كما أن للمغفور له الأستاذ عبد الوهاب عزام عدة مؤلفات عن الشاعر محمد إقبال، وله تراجم شعره التي تساعده في معرفة شخصيته وفهم تفكيره ورسالته.

إنني لم أذكر محمد إقبال والمؤلفات التي تتحدث منه إلا بدافع من الحب الذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، فإذا نال الرأي من أخي وليد إعجاباً وقبولا فذلك ما أبغيه وإلا فلم أرد به إلا خيراً.

وبعد فهذه كلمة عابرة عن أخي شاعر الإسلام وليد ليس مصدرها إلا الحب والإخلاص والمودة المؤمنة، لم أقصد فيها استيعاباً لشخصيته ولا لديوانه، ويكفي تقديم الأستاذ نعمان عبدالرزاق لديوان الزوابع معرفة للأخ وليد ورسالته، وفيه غنى وكفاية لا يحتاج بعده إلى تعريف.

علي بن الجهم(*)

أحب أن أتحدث إليكم عن شاعر أعجبتُ بشخصه وبكلامه، عرفته بديوانه معرفةً، وأحببته ودعاني ذلك إلى الحديث عنه وإيراد بعض النماذج من روائع أبياته وذكر بعض أخباره الشعرية ونبذة من حياته.

ذلك الشاعر هو أبوالحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن المسعود القرشي السامي نسبةً إلى سامة بن لوئي بن غالب، وهم من قريش، وهذا النسب كان له مصدر كرامة وفخر، وقد ذكره الشاعر في عدة مواضع من شعره، وعُرف في حلقات الأدب والشعر ومجالس الأدباء والعلماء بعليّ بن الجهم، وكان له محلّ كريم عند خليفة عصره المتوكل ومكانة فائقة لديه حتى قرّبه الخليفة واتخذه جليساً ونديماً، ولم يلبث أن جعله من خاصة ندمائه، فكان يُرسله في حاجاته ويفضي إليه بأسراره، ويعتمد عليه ويأنُس بمجالسته منفرداً ومع الندماء الآخرين، وكان يطلعه كذلك على أموره الخاصة وعلى ما يدور بينه وبين خطاياه وجواريه.

ولم تزل بين أسرة الشاعر وبين الخلفاء علاقات وأواصر مودة، فقد ولي الخليفة المامون أباه الجهم يريد اليمن كما ولاّه الخليفة الواثق الشرطة في بغداد، وكان أخوه الأكبر محمد بن الجهم مقرباً عند المأمون فتولّى عنه عدة ولايات في بلاد فارس وتولى في عهد المعتصم دمشق

(*) مجلة البعث الإسلامي، يوليو ١٩٥٦م.

سنة ٢٢٥هـ، وكذلك كان عمه إدريس بن بدر وابن عمه عثمان بن إدريس من وجهاء العصر.

وُلد حوالي سنة ١٨٨هـ، إمّا في "مرو"، وإمّا في "بغداد"، أمّا نشأته فكانت في بغداد، فقد نشأ وترعرع فيها وقرأ العلوم والفنون ودرس الأدب واللغة وقرض الشعر وهو دون عشر سنوات من عمره.

وكان على ذكيّ الفؤاد نشيطاً تظهر على مخايله آثار النبوغ والبراعة وهوطفل، وكان يكثر اللعب والقفز والضجيج في بيته وفي الكتّاب حتى ضجر والده من ضوضاء شره، وكتب إلى المعلم يوما أن يحبسه في الكتّاب بعد العطلة، فلما رأى على أن الأولاد قد تخلصوا إلى بيوتهم وهومحبوس بأمر والده كتب في لوحة إلى أمّه يمثّل عن كربته:.

يـــا أمّتـــا أفـــديك مـــن أمّ
أشـــكو إليـــك فظاظـــة الجهـــم
قـــد سُـــرّح الصـــبيان كلّهـــم
وبقيـــتُ محصـــوراً بلاجـــرم

وبعث به إليها مع صديق له من الصبيان حتى كان من نتيجته أن أمه ثارت على أبيه، وقالت: والله لئن لم تطلقه لأخرجنّ حاسرةً حتى أطلقه.

ومما حدث في الكتاب ذات يوم أنه أخذ اللوح وكتب فيه إلى بنت صغير دون العاشرة من عمره.

مـــاذا تقـــولين فـــيمن شـــفّه ســـهر
مـــن جهـــد حبـــك حتـــى صـــارحيرانا

وهكذا بدأ يكتب ويقول الشعر في الصغر، فلقد كان شاعراً مطبوعاً، وانقطع عن الكتاب وعكف على الشعر عكوفًا لا بأس به ووهب له كل شئي، وجرّه الشعر إلى الثقافة العربية عن الثقافة

اليونانية وإلي مذهب أهل الحديث عن مذهب المعتزلة فكان يختلف إلى الإمام أحمد بن حنبل ويبادل معه الآراء في مسائل القدر والصفات، ويجالس العلماء والشعراء في المسجد الجامع ببغداد، وكان معروفاً بينهم كشاعر مطبوع، ومن هناك بدأ صيته يطير، واسمه يشتهر وشعره يذيع، وأخباره تعمُّ.

أقبل على رواية الشعر وإنشاده، ولم يبق مذهب من الشعر إلا سلكه حتى اشتد إعجاب الناس به لجودة كلامه وفصاحة منطقه ورفعوا مجلسه وعظموه تعظيما كبيرًا ورووا شعره وبلغ المأمون، فسرعان ما دعا أخاه محمد بن الجهم، وقال: قد نبغ لك أخ يقول الشعر فأنشدني له فلم يذكر إلا قول عليٍ في الكلب:

أوصيك خيراً به فإنّ له
سجية لا أزال أحمدها
يدلّ ضيفي على في غسق الـ
ليل إذا النارُ تام موقدها

فقال الحسن الموصي بالكلب وأمرله بمال.

واستحسن المأمون أبيات علي في الشطرنج، فكان يُكثر من إنشادها والتمثل بها حتى نسبت إليه ونسبها السيوطي أيضا في تاريخ الخلفاء إلى المامون، وهي:

أرض مربّعة حمراء من أدم
مابين إلفين معروفين بالكرم
تذاكر الحرب فاحتالا لها فطنا
من غيرأن يأثم فيها بسفك دم

هــذا يغــير علــى هــذا وذلــك علــي

هــذا وعــين حليــف الحــزم لم تــنم

فــانظر إلى بُهــم جاشــت بمعركــة

في عســكرين بــلا طبــل ولا عَلَــم

ما أحسن وصف الشطرنج، وما أبدع تمثيله بالأرض المربعة الحمراء، وما أحسن وصف الجمع بين الحرب وسفك الدم والإغارة والمعركة والعسكرين.

وقد أدرك على بن الجهم عصوراً من الخلفاء العباسيين منهم الخليفة المأمون والخليفة المعتصم الذي ولاّه مظلم الحلوان والعراق، وله قصيدة طويلة في مدح المعتصم يهنئه فيها بفتح عمورية بعد أن ظفر بالخارجين على سلطانه، وبها يفتتح ديوانه، وإليك بعضها:

متــى عطلــت ربــاك مــن الخيــام

ســقيت معاهــدا صــوب الغمــام

ونســتاف الثــرى مــن بطــن فلــج

ونســتلم الحمــى أي اســتلام

خليلــي الهــوى خلــق كــريم

تقصــر عنــه أخــلا ق اللئــام

ألا طرقــت تلومــك أمّ عمــرو

ومــا للغــا نيــات وللمــلام

أعــاذل لوأضــافك جــنح ليــل

إلــي وأنــت واضــعة اللثــام

لســـرَّك أن يكـــون الليـــلُ شـــهرًا
وألهـــاك الســـهاد عـــن المنـــام
وأنـــت خليفـــة الله المعلـــى
علـــى الخلفـــاء بـــالنعم العظـــام
وليـــت فلـــم تـــدع للـــدين ثـــأراً
ســـيوفك والمثقفـــة الـــدوامي
وقـــد كـــادت تزيـــغ قلـــوب قـــوم
فـــأبرأت القلـــوب مـــن الســـقام
لســـيفك دانـــت الـــدنيا وشُـــدّت
عُـــرى الإســـلام مـــن بعـــد انفصـــام
مـــودّ تكـــم تمحّـــص كـــل ذنـــب
وتُقْـــرِنُ بالصّـــلاة وبالصـــيام

وجاء الواثق بعد أبيه المعتصم سنة ٢٢٧هـ، فشدّد على أهل الحديث ولم ينشرح له صدر على، وما ارتاحت به نفسه فلا نوى له قصيدة يمدح بها إياه إلاَّ نتقًا من الأبيات قليلة العُدد، قصيرة الأوزان.

وفي خلافة المتوكل ارتاحت نفس علي وتحققت أمنيته التي طالما نشدها خليفة يحّب العلم والعلماء، ويرى رأي أهل السنة وأصحاب الحديث ويرغب في الشعر ومجالسة الأدباء، وقد ذكرنا آنفا أن الخليفة المتوكل قرَّبه واتخذه من خاصة ندمائه فمدحه بقصيدته الرائعة التي نالت فيما بعد شهرة عظيمة وقبولا بين الأدباء، وقد نوّه بها ابن ابن شرف القيرواني في "أعلام الكلام" حيث قال: "أما علي بن الجهم فرشيق

الفهم، وله في الغزل الرصافية وفي العتاب الدالية، ولولم يكن له سواهما لكان أشعر الناس بهما"، وهذا مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوي من حيث أدري ولا أدري

وبشهرة هذه القصيدة تفنن الأدباء بمطلعها وينسج الأقاصيص حولها:

ومما يدل على علاقة علي بالخليفة ما ذكره صاحب الأغاني على لسان علي أنه قال: "دخلت على المتوكل، وقد بلغني أنه كلَّم قبيحة جاريته فأجابته بشيئ أغضبه فخرج، وقد حُمّ من الغم والغضب، فلما بصر بي قال: قل في علتي هذه شيئا، وصِف أن الطبيب ليس يدري مابي فقلت:

تنكر حال علّتي الطبيب

وقال أرى بجسمك ما يريب

جسست العرق منك فدل جسّي

على ألم له خبر عجيب

وقلت أيا طبيب الهجردائي

وقلبي يا طبيب هو الكئيب

فحرك رأسه عجبا لقولي

وقال الحبّ ليس له طبيب

ولكنه قد تغيرّ عما قليل قلب المتوكل بما حسده الندماء على مكانته الفائقة لدى المتوكل، فكادوا له وسعوا به، فأمره الخليفة بالانقطاع عن القصر، وهنالك توسع مجال الحاسدين فمشوا ضدّه بالنميمة بالكذب وأثاروا الخليفة عليه فغضب وأمر بحبسه فعمل على قصيدة أرسلها إلى الخليفة مع أخيه وهو في السجن، ومن أبياتها:

توكلنـــــا علـــــى ربّ الســـــماء
وســـــلّمنا لأســـــباب القضـــــاء
وأفنيـــــة الملـــــوك محجّبـــــات
وبـــــاب الله مبـــــذول الفنـــــاء
فمـــا أرجوســـواه لكشـــف ضـــوّي
ولم أفـــــزع إلى غـــــير الـــــدعاء
ومـــا حـــبس الخليفـــة بـــي بعـــار
ولـــيس بموئســـي منـــه التنـــائي

وله قصيدة أخرى في مدح الخليفة في السجن، أوّلها:

قـــالوا حُبســـت فقلـــت لـــيس بضـــائر
حبســـي وأيُّ مهنـــد لا يغمـــد

أحسن شعرلم يسبقه إلى معناه أحد، وقال ابن خلكان: "وهي أبيات جيدة في هذا المعنى لم يعمل مثلها.

وخرج من السجن بعد أن كابد فيه المحنة الشديدة، وأقام في خراسان مدة طويلة فزهد في الحياة ورغب عن الناس، حتى زعم أنه لم يبق له في الدنيا صديق ولا مؤنس، فأكثر من الاختلاف إلى القبور والجلوس بينها منفرداً وعاد إلى وطنه بغداد، ولكنه آثر الوحدة ورجح التفرد ولم يذهب إلى المتوكل لمناد مته وقد تنكر له الناس وانصرفوا عنه فازداد رأيه سوءًا في الحياة ولم تبق الحياة عنده إلا هزلاً ومجموعة من الخرافات، وذلك هو الذي جرَّه إلى مصاحبة أهل الفتوة والتلهي معهم بالقيان والإقبال على المجون والعبث والغزل.

ومع أن قيمة الحياة كانت قد خفّت في عينه واسودّ رأيه فيها وفي

الناس ولكن حبّه للمتوكل لم يخف بعدُ، ولم تضعف صلته به حتى إذا كان مقتل المتوكل بدسائس ابنه المنتصر حزن عليه حزنًا شديدًا بلغ إلى الجنون، ونسي كل ما أصابه من الأذى والسوء من الخليفة ورثاه بقصيدة طويلة يملؤها التفجعّ وصدق اللهجة، وهذا مطلع القصيدة.

وسارية ترتاد، أرضا نجودها

شغلت بها عينًا قليلا هجودها

وقد أثرت فيه حادثة مقتل الخليفة المتوكل أثراً لم يبق للّهووالمجون في نفسه مجالاً وانتقلت حياته إلى طور جديد طورفيه اليأس والتخلص عن الحياة، وقد وقع موته في سنة ٢٤٩هـ حينما خرج في قافلة إلى الثغرللقتال مع الكلبيين، فهرب من كان في القافلة من المقاتلة وثبت على وقاتلهم قتالاً شديداً فأصابته طعنة قتلته فاحتمله أصحابه وهو ينزف الدم، فلما أحسّ بالموت قال:

أزيد في الليل ليلأم

سال في الصبح سيل

يا إخوتي بدُجيل

وأين مني دُجيل

ودُجَيل شارع ببغداد، كان فيه منزل علي بن الجهم، ونزعت ثيابه بعد موته فكانت معه رقعة فيها:

وارحمتا للغريب في البلد النازح

ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فلما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا

السيد جمال الدين الأفغاني(١)(*)

ختم الله النبوّة، وأتمّها على يد خاتم النبيين محمّداً، ولكن الحكمة الإلهية قد شاء ت بقاء هذا الدين على وجه الأرض إلى يوم القيامة، فقدر الله لكل عصر مجاهداً، وبطلا يجدد هذا الدين، ويثور علي الأوضاع الفاسدة ويقلب تيار الحياة فلا يخلو عصر من العصور من هادئ يرشد، ومن مصلح يبني، ومن داعية يدعو، وهذه السلسلة الذهبية امتدت وستمتد.

وإذا درسنا تاريخ القرن الثالث عشر، وبحثنا في رؤوس المسائل التي تواجه الحياة الاجتماعية والقومية رأينا الحاجة ماسةً إلى إيقاظ المسلمين من غفلتهم وإيصال العرب إلى أمجادهم إذ كانت روح الحرية قد ماتت فيهم، وعواطف النهضة قد خمدت في قلوبهم وفقدوا استقلالهم وتوثّبهم، فهنالك طلع نجم من نجوم الهداية على أفق أفغانستان وبزغ في سماء التجديد الإسلامي وأرسل أشعته إلى قلوب المسلمين التي قد غشيها ظلام الجهل، ومسح عن عيون الشرقيين همود الكرى والغفلة، وذلك النجم هو السيد جمال الدين الأفغاني.

ولد السيد جمال الدين في أسرة عريقة في الشرف في أفغانستان سنة ١٢٥٤هـ، ودرج في بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وأريحية وأنفة، وينتهي نسبه إلى سيد الشهداء الحسين بن على رضوان الله

(*) مجلة البعث الإسلامي، أبريل ١٩٥٦م.

عليهما فقد جمع إلى شرف النسب عزالسيادة.

ولم يكد جمال الدين يبلغ الثامنة من عمره إذ بدأ يتعلم في أحد كتاتيب قريته، وما قضى جزءًا من حياته الدراسية حتى تجلت أسارير النبوغ، ولاحت بوادر الذكاء على مخايله، فدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف والعلوم العربية، وبعد أن درس في صغرسنه علوم الدين والدنيا وفنون اللسان والعقل نشأت فيه رغبة إلى السياحة في الأقطار الإسلامية فأخذ يتنقل من بلدة إلى أخرى، وأحاط علمًا بأحوال البلاد الشرقية ومكث في الهند يتعلم الرياضة والفنون العسكرية فيها، وهذه الرحلات والأسفار قد أكسبته تجارب واسعة ومعرفة عظيمة بحياء الشرق وزادته حنكة وخبرة في منازعات السياسة وأحوال الدول وأخلاق الشعوب، وحذق من اللغات الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية والتركية والفرنسية.

كان السيد جمال الدين متواضع النفس، جريئًا، سخيا، زاهدًا في الدنيا، ذرب اللسان، أبي الضيم، صريح القول، بعيد النفس، له شخصية قوية فذة، وقد أودع الله فيه الذكاء النادر، والبصيرة النافذة وقوة التوليد للأفكار والمعاني من كل مايسمع ويبصر، وقد قال فيه قائل، وما أصدق مقاله: "له سلطة على دقائق المعاني وتحديد ها في صورها اللائقة، كأن كل معنى قد خلق له وله قوة في حل ما يعضل منها كأنّه سلطان شديد البطن، فنظرة منه تفكك عقدها، كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف سرّالغموض عنه، فيظهر المستور منه، وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، وله لسن في الجدل،

وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه. (زعماء الإصلاح ؛ للدكتور أحمد أمين)"

وإن جمال الدين قد طالع حياة المسلمين، فوجدها قد تسرب فيها الجمود والغفلة والجبن والخور، وإن المسلمين قد فقدوا حماسهم الديني وروحهم الجبارة التي كانت تحكم في العالم من أقصاه إلى أقصاه، وخاصّة نظر إلى العرب بالمنظار العربي العريق فرأى فيهم انحطاطا كبيرا، فقلق جمال الدين بهذا المنظر أشد القلق وتوجّع به توجّعا عظيماً، واشتد ألمه لحال الإسلام، وقد خطرت له في هذا الموضوع خواطر نادرة، وقد قال مرّة: "قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حدّ أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقا جديد وجيلا مستأنفا، فحبذا لولم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة" وأيضا يقول: "إن المسلمين قد سقطت همّتهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم، وقام شييء واحد فيهم، وهو شهواتهم" وهذه الأقوال مرآة صادقة لأفكاره، ولما يجيش في صدره من الثورة لاسترداد مجد الإسلام والتذمر الشديد لما فيه المسلمون من الغفلة عن الأخذ بأسباب الحياة.

فكر السيد جمال الدين في إصلاح الشعب العربي والشرقي وطوف تحت هذه الفكرة في إيران والهند والحجاز ومصر وتركيا وانجلترا وفرنسا، وأقام فيها ردحاً من الزمن، ولكن كان أخصب أيامه وأزكى زمنه ما مضى في مصرمدة إقامته بها ثماني سنوات، وأنه لم يطب له المقام في مصرلأول مرّة احتل فيها، إذ أراد بعض الحّساد والحاقدين أن يفجعوه ويضيقوا عليه المقام فبدأ وا يتهمونه بالخيانة والغدرمرة، وبالإلحاد والزندقة أخرى، وهذا ما يواجهه المصلحون والمخلصون في

سبيلهم دائمًا ولا بدّ، فرحل من مصر إلى الحجاز وأقام فيها ماشاء الله أن يقيم، ولكنه لما نزل مصر للمرة الثانية ليبث فيها ضياء الحق، ويكشف ظلام الجهل عن القلوب، جمع حوله نخبة من الأذكياء والعلماء يبلغ عددهم مئات، فكان فيهم سعد زغلول، والشيخ محمد عبده، وقاسم أمين، وإبراهيم الهلباري، وأحمد شفيق، وعبدالله نديم وغيرهم من كبار رجال العلم والدين وطلائع النهضة الدينية والاجتماعية في العصر، وكان هؤلاء يردون على منهله العذب ويغترفون من مائه الصافي النقي الذي لا كدر فيه ولا نغص.

وقد كانت دروسه ودعوته في الغالب تدور حول الحث على مصلحة الوطن العمومية، وكانت أفكاره الراقية تنظر بنور الله إلى إيجاد الحرية والاستقلال وإعادة العز القديم، لئلا تبقى القلوب جامدة والعواطف خامدة، بل يتفرغ الناس لشأن الدعوة الإسلامية وإصلاح المجتمع بكل حرّية ورغبة ونشاط، ويتجلى هذا بوضوح في حديث ألقاه إلى المصريين حيث قال: "إنكم معاشرالمصريين! قد نشأتم في الاستبداد وربيتم بحجر الاستبداد توالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومُكم حكوماتكم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط، وأنتم في غفلة معرضون، فلوكان في عروقكم دم فيه حياة، وفي رؤوسكم أعصاب فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون" إلى كثير من أمثال ذلك.

عرفت أن السيد جمال الدين كان في أطوار حياته فيلسوفًا كاملا، عالما عاملا، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفي من الحكمة بالنظر دون العمل، ولم يكن شأنه شأن العلماء القائلين الذين قلوبهم في واد، وألسنتهم في واد، فكان يبعد نفسه عن الشهوات كل البعد، ولا يرى من اللذة إلا اللذة العقلية العالية، وإنه قد أعرض وأبى حينما حاول السلطان عبدالحميد في الآستانة أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزوج، وكان ينظر إلى المال نظرة إلى التراب، فلا يدّخره ولا يتناول منه إلا شيئا قليلا يحتاج إليه الحياة وكذلك أنكر أشد الإنكار لما أراد سلطان منحه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلا، ورفض قبول الوسام مهما كان عاليًا، وقال: "أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل؟! وبالجملة كان راغباً عن الدنيا بحذا فيرها، عزوفًا عن زينتها، معرضا عن زخار فها"

السيد جمال الدين الأفغاني(٢)(*)

أقام السيد في حيدرآباد (الدكن) في الهند ثلاث سنوات منفيًا لا يسمع له بمفارقتها، ولا يستطيع أن يشارك في عمل، ولكنه ألّف في هذه المدة كتابه المعروف بالردّ على الدهريين كتبه بالفارسية فترجم إلى الأدرية ونقله إلى العربية تلميذه الكبير الشيخ محمّد عبده، وبعد أن مكث السيد ههنا ثلاث سنوات نقلته حكومة الهند إلى "كلكتّا" لما حدثت في مصر "الثورة العرابية" فلم يقم فيها إلا عدة أشهر، وانتقل إلى لندن سنة ١٨٨٣م، وهنالك اقترح السيد على صديقه وتلميذه النابغ الشيخ محمد عبده إنشاء جريدة عربية، فقبل الشيخ هذا الاقتراح وشمّر له عن ساق الجد حتى صدرت الجريدة باسم "العروة الوثقى" تولى الشيخ محمد عبده إدارة التحرير والصياغة، ولم تمض على صدورها إلا أشهر حتى انتشر صيتها في الأوساط العلمية الدينية، وسمع لها دوي في الحلقات السياسية والحكومية، فكان من نتيجة ذلك أن أوجس من بيده السيادة على الحكومات الهندية والمصربة خيفة عظيمة من الجريدة فأمر بمنعها من الدخول وأصدرت وزارة نور باشا في مصر قراراً بالتشدد في منعها فاحتجبت الجريدة بعد ما استمرّت في خطتها زهاء ثمانية أشهر، ولكن لم يحتجب أثرها، ولم تمت قوّتها فإنها قد أحيت الأرواح الميتة وأيقظت القلوب النائمة وبصّرت الناس بسوء حالهم، وعلم كثيراً منهم

(*) مجلة البعث الإسلامي، مايو ويونيو ١٩٥٦م.

طريق الكتابة والخطابة ومنهاج الدعوة إلى الشعور بالقومية والاستقلال.

عطلت الجريدة وانفرط عقدها المنظوم، وعاد السيد جمال الدين إلى إيران بنأي على دعوة من الشاه ناصر الدين، وما هي إلا أيام قلائل إذ دبت الغيرة في نفس الشاه وأحسّ بالخطر وتنكرّ له فأذن السيد بالرحيل وسافر إلى روسيا وأقام فيها نحو ثلاث سنين، ثم سافر إلى أوربا ليعمل هناك عملا ذا بال لخدمة الإسلام والشرق الإسلامي، ففعل ماشاء الله أن يفعل وأحسن، ولكن الإ نجليز الدُهاة لا يرضون بهذا المجاهد العظيم الصداع بالحق، وبأن يتركوه حرّا يفعل مايشاء، وهم أشد الناس دهاء. فشددوا التضييق عليه فيكل ناحية من نواحي حياته، واضطروه إلى مغادرة إنجلترا.

هكذا تنقل السيد في باريس ولندن مرة، وفي الهند ومصر مرة أخرى، وفي إيران وروسيا مرة ثالثة، ولا يزال يخدم المسلمين وينير الأذهان وليضيئ الأحلام مكافحًا بالقلم واللسان ومناضلا بالهمّة والعزيمة، وإنه مكب على أعمال جليلة من الإصلاح والتجديد والدعوة والعزيمة والجهاد في الحق وتدمير الباطل والطاغوت وإنقاذ الإنسانية من أقذار الخسف والذل والعبودية والهوان، كل ذلك في سبيل الدين فحسبُ لا يخاف أحدًا إلا الله، ولا يخضع أمام أي سلطان سلطان السياسة أوسلطان المادّة أوسلطان الشهوات.

ها هو ذا السيد جمال الدين قد لاقى في سبيل هذه الجرأة كثيراً من المتاعب والمصايب، وصادف الآ لام والنوازل، ولم يقُل على جميع هذه المبكيات المفجعات كلمة أُف، ولم يتفوّه بما يشين شخصّيته، ويحط كرامته، فهو بسبب هذا قضى جزءًا كبيراً من حياته منفيًا مشردًا، موكلا في الفضاء لا بيت يسكن فيه ولا زوج تخفف عليه أعباء الحياة، وأثقال

العيش ولا أولاد تقرعينه برؤ يتهم، ولاضيعة وعقار ينتفع بها شيئا، فإنه يصبح ويضحي، ويمسي ويبيت لا في مكان دائم ولا في بيت مستقر، وهكذا حياته كلها حل وترحال، وتنقل وتبدّل، وخشونة وشدة.

أنفق جمال الدين حياته كلها في خدمة الدين وإصلاح النفوس وتثقيف العقول، وكافح وناضل حتى أحيا القلوب وأيقظ العواطف وأنشأ في الفرق عوامل النهوض والرقي مجرداً عن نعمة الهدوء والسكون.

ومن أكبر حسنات السيد جمال الدين أنه أعاد بشخصيته القوية الجذابة وعلمه الواسع المتدفق وعقله النابغ المبتكر وخطابته الساحرة وإخلاصه الفائق وحياته النزيهة ونشاطه الدائب أنه أعاد لكل مواهبه هذه الثقة إلى نفوس هذا الجيل الجديد بالدين الإسلامي، فصار ينظر إليه كدين حيّ قويّ ورسالة خالدة، ونظام صالح للبقاء والاستمرار بعد ما كان قد قطع منه الأمل، وكان ينظرإليه كدين قد انتهى دوره، وانقضى عصره، وتجرّد من كل مقومات الحياة وسبقه الزمان فتخلف عن ركب الحياة، ولولم تكن للسيد جمال الدين غير هذه الحسنة وغير هذه المأثرة لكفاه فخراً.

إن جمال الدين مات بطلاً شجاعًا ومصلحًا كبيرًا وقائدًا فكريًا عظيمًا، وإن له أيادي بيضاء لا ينساها التاريخ ولا تمحوها الطوائح، وهولا يزال يُذكر في سجل الخالدين من الأبطال والمجاهدين.

الشاعر محمد إقبال يناجي العرب(*)

أول ما بدا لي حين أردت أكتب عن إقبال الشاعر أن أختار أبياتا من شعره يناجي فيها العرب ويناجي روح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي من روائع أبياته التي تتجلى فيها شخصيته المسلمة وفكرته الإسلامية، وإذا استعرضت أيها القارئ العزيز! هذه الأبيات شهدت باتصاله الوثيق وحبّه العميق للرسول وللعرب، فإليك طائفة من أبياته التي خاطب فيها العرب وتحدّث فيها إليهم، وبثّ أشواقه وعقيدته، وماكان يحمل من إخلاص وإجلال للمقام النّبوي.

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة، حين كان نظام العرب فوضى، يعيشون كالبهائم التي لا همّ لها في الحياة إلا الأكل والشُّرب، وكان مثلهم كمثل السيف المفلول يترءاى للناظر لا معاً قاطعاً، ولكن ليست له ظبة، فهو لا ينفع ولا ينفع به، فيقول الشاعر:

"أيها العرب! قد منّ الله عليكم إذ جعلكم مثل السيف البتارأوأحدّ منه، وكنتم من قبل ترعون الإبل في الصحراء وتركبون عليها وتظعنون بها، ثم انعكست الآية فسخر الله لكم المقادير فضلاً عن الإبل فأصبحتم من مالكي أعنّتها، فلو أقسمتم على الله لأبرّكم، وهنالك دوّت تكبيرا تكم وصلواتكم وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين، فارتج بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد الأول، العدد الأول، أكتوبر ١٩٥٥هـ.

تلك المغامرات، وأجمل تلك الغزوات".

وبعد ما يمدحهم الشاعر ويذكر حماستهم الإسلامية وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ويبدي فرحه وسروره يقف برهة ويملكه الحزن والتألّم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفرقة بعد الوحدة، والعبودية بعد السيادة، والاتباع بعد القيادة، ويوجه إليهم مخاطباً معاتباً ويقول:

"أسفا على هذا الخمود والجمود أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى كيف تقدّمت وسبقت، أمّا أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها وهذه الحّرية التي ورثتموها، كنتم أمة واحدة، أمة الإسلام فصرتم اليوم أمما، وكنتم حزبا واحدًا حزب الله، فأصبحتم أحزابا، لقد فرقتم جمعكم ومزّقتم شملكم وانقسمتم على أنفسكم.

اعلموا أيها السادة! أنّ من ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات ومُحي من الوجود، ومن فرّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء وتطفلّ على مائدتهم عُوقب بالهوان والشقاء والطّرد والجلاء، ألا إنّه لم يجن عدو على عدومثل ماجنيتم أنتم على أنفسكم، ولم يسيئ أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمّتكم، إنكم آذيتم روح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصنيعكم، فهي متألّمة متوجّعة، شاكية، مستغيثة".

الشاعر عارف بمكائد الأفرنج وما لديهم من سهام مسمومة وحبائل منصوبة، وهو شديد المعرفة بهم، قد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم، فهو يتألّم إذ يرى في الأمة العربية من يحسن الظن بهم ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة وفضّ المشاكل، فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم، يقول:

"مهلا أيها الغافلون! إياكم والرّكون إلى الأفرنج والاعتماد عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، ألا إنه لا حيلة لكم ولاوزر، إلا أن تطردوهم عن منهلكم وتزودوهم عن حوضكم، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم وتركتها سليبةً حزينةً لا تملك شيئا، إنها مزّقت وحدة العرب، واقتسمت تراثهم، إن العرب لما وقعوا في حبائلهم، تنكر لهم كل شيئ وقسا عليهم هذا الكون، ولم يجدوا من يرثي لهم ويرفق بهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم".

بعد ما يفيض الشاعر في بيان شرور الأ فرنج ومكائدهم، ويحذر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم، يقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم، ويقول:

"إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنةً، فقوموا أيها العرب وردّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى، إن منبع القوة ومصدر ها هو الدين، منه يستمدُّ المؤمن العزم والإخلاص واليقين، ومادامت ضمائركم أمينةً للسَرّ الإلهي، فيها عّمار البادية أنتم الحرّاس للدين، وأمين الله في العالمين، إن عزيزتكم العربية الإسلامية ميزان للخير والشرّ، ورثه الأرض، إذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين وطُوِي بساطهم، لن تسعكم الصحراء والفيافي، فاضربوا خيمتكم في وجودكم الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السّيل حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الرّيح.

ليت شعري من خلّفكم في الحياة؟! إن العصر الحاضر هو وليد نشاطكم وكفاحكم وصنيع جهادكم ودعوتكم، ومازلتم سادته ووُلاته

حتى أفلت زمامه منكم، فتبنّاه الغرب وامتلكه، ومن ذلك اليوم فقد هذا العصر وهذا المجتمع الإنساني شرفه وكرامته، وأصبح تحت ولايته منافقًا خليعاً ثائراً على الدين.

فيا رجل البادية! يا سيد الصحراء! عُد إلى قوّتك وعزتك وامتلك ناصية الأيام، وخُذ عنان التاريخ، وقُد قافلة البشرية إلى الغاية المثلى".

وهناك نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله صلى الله عليه وسلم ضياع الأمة الإسلامية، وانطفأت شعلة الحياة والإيمان في نفوس العرب، ويشكو وحدته وغربته في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ويناجيه مناجاة من قام بين يديه، وأذن له في الكلام، يقول:

"لقد تشتّت شمل أمتك يا محمّد! يا رسول الله! فإلى أين يلجأ المسلم الحزين؟ ومن يأوي إليه؟ لقد سكن بحرالعرب المضطرب المائج وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذي عرفت به، فإلى من أشكوألمي، وأين أجد من يسا عدني على آلآمي وأحزاني؟ وماذا يفعل حادي أمّتك، وكيف يقطع الطريق الشاسع ويطوي السفر البعيد في هذه الجبال والمهامه، وقد ضل سبيله، وفقد زاده، وانقطع عن الركب؟ بالله قُل لي ماذا يصنع حامل دعوتك، المؤمن برسالتك، وأين يجد ز ملائه ورفقته"؟

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرون إلى الأوربّيين. الانجليز والأمريكيين كأصدقاء مخلصين وأعوان منجدين، يحلّون لهم مشكلة اللاجئين ويردّون إليهم أرض فلسطين، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحافي، يقول:

"أنا أعلم جيدا يا إخواني العرب أنّ النار التي شغلت الزمان

وبهرت التاريخ لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم، صدّقوا أيها السادة! إنه لا دواء لكم في جنيف ولا في لندن، لأنّكم تعلمون أن اليهود لا يزالون يتحكمون في سياسة أوربا ولا يزالون يملكون زمامها، إن الأمم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال، حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس، وتعرف لذّة الظهور".

هذه بضعة أبيات وقع عليها الاختيار في جولة قصيرة خاطفة في دواين شعره ولم أقصد الاستيعاب، فلعلّ هذه المقالة تحظى بالتفات من خاطبهم الشاعر وناجاهم، وبذلك تبلغ رسالته إليهم ولوبعد وفاته، وفي ذلك سرور ونعيم لروح الشاعر الراحل وشرف للكاتب وسعادة له.

الدكتور محمد إقبال
شاعر الضمير والإيمان(*)

"انهض يا باني الحرم! وجدِّد بناء العلم، انهض من سبات الغفلة، أخرج من رداء الغفوة إلى عالم العمل، قم واستيقظ من نومك العميق".

يردِّد إقبال هذا النشيد في إحدى قصائد شعره الفارسي، يردده في تألم بالغ، وفي أسى عميق، كأنه يشهد مناظر الغفلة والتخاذل، غطت الأمة الإسلامية، وأحاطت بها من كل جانب، فاقتنعت بسابق مجدها، ورضيت بمآثر سلفها، ولم تر أي حاجة إلى السعي والعمل، فاستأثرت بالانزواء إلى مقابع الخمول والجبن، والارتماء إلى محاضن الجمود والركود.

لقد عيل صبر إقبال وطفحت كأس العزاء عنده بما قد رأى الفتن ألوانها والمؤامرات المكثفة بأنواعها، تقوم عل قدم وساق، وحتى تدق أبواب الحرم لمحو ما بناه المسلمون في أيامهم الأولى من حضارة إسلامية ذات عقائد ثابتة، ومن حياة أصيلة تقوم على أساس العلم والإ يمان، بأوسع معانيها، ولكن المسلم المعاصر غافل من كل ذلك، غارق في لذائذه ومتعه، مقبل على شأنه لا يلوي على شيء، لا يرى ما يهدمه الأعداء من معالم الحياة الإسلامية وآثار العقائد والإيمان، ولا يفطن لما يحوم حوله من أخطار ومطامع حمراء وصفراء.

تحرق إقبال بهذا المنظر القاسي، وذاب كالشمعة فتدفق ينبوعه

(*) مجلة البعث الإسلامي، ربيع الأول ١٣٩٨هـ.

الشعري بالنشيد الحزين، وارتفعت عقيرته بهذا النداء المزيج من اللوم والرجاء، وأراد أن يهز المسلم النائم من سباته العميق ويريه ما ينسج حوله من حبائل المؤامرات وشبكات الدسائس للقضاء على شخصيته الإسلامية وتحويل مقدساته إلى مقامر اللهو والفجور وتغيير معتقداته بتقاليد وطقوس، وهنالك وجه إقبال هذا الرجاء إلى المسلم الذي تولى بناء الحرم وقاد الشعوب والأمم، وهو يرجو أن يعود إلى مكانته القيادية ويجدد بناء العالم.

مجرد هذا النشيد يكفي للدلالة على فكرة إقبال وسمو نظرته، وما حمله من رسالة خالدة في شعره الخالد إلى العالم الإسلامي وأمته، لم يكن إقبال وليد الأحداث والصدف الزمنية ولا نتيجة الأجواء والطقوس، فيجري مع الرياح حيثما جرت وهبت، إنما كان مطبوع العقيدة والإيمان، تعمق في بحر من الفكر الملهم ونزل إلى أغواره، فجاء بأصداف مليئة بالجواهر واللآلي، وصاغ بها شعراً كله دعوة وتفكير، وشرح وتفصيل لمعنى الحياة والإنسان والكون.

وسع إقبال اطلاعاً على جميع ما وجد وَجَدَّ، وما راج وساد في عصره من علوم ونظريات وفلسفات وحضارات، وتوسم بفكره النير وعقله الواسع وذكائه النادر كل المخاطر التي تهدد مستقبل الأمة الإسلامية، وتمثلت له جميع تلك المجهودات التي كانت تبذل من وراء الحجب الكثيفة لهدم معالم الحياة الإسلامية وزعزعة الأسس العقائدية في المجتمع الإسلامي، فجاشت في نفسه الينابيع الشعرية بشتى الألوان والعناوين، ومختلف الخطابات والأسماء، فلم يلبث أن استهدف الحضارة الغربية وتناولها بالنقد والتحليل، وجميع ما فيها من نظام للحكم والتعليم والثقافة والمدنية وفلسفة للأخلاق والسلوك والآداب،

ونظـرة إلى الكـون والحياة، وانتقـد الـنظم الاشـتراكية والديموقراطيـة والعلمانية، والفلسفة الماركسية والنظرة المادية.

كل ذلك في أسلوب الناقد البصير والحكيم المحنك الذي نزل إلى أعمـاق هـذه الظـواهر كلـها ودرسـها وجربهـا طـويلا، ثـم توصـل إلى النتائج التي كساها لباس الشعر والفن، الذي ضرب به على الأوتار فهـزَّ القلـوب، وأيقـظ النفـوس النائمـة، وأحيـي العواطـف الخامـدة، وأذاب الصـخور الجامـدة، وجعـل مـن الشـعر حكمـة تفـيض بالمعـاني والحقائق التي لا تدرك إلا بعد دراسات طويلة وعكوف طويل على التحقيق والبحث، مضافاً إليها سحر النغمة والأسلوب الخلاب.

ومن هنالك كان كلام إقبال صورةً شاخصةً للواقع الذي يعيشه العالم المعاصر شرقاً وغرباً، وتفسيراً واضحاً للفلسفة الإسلامية التي تتميز بوضوح الرؤية والهدف، واستنارة المبدأ والمنتهى، والتي تحلل شخصية المسلم تحليلاً دقيقاً، وتحدد أبعادها ومناحيها، وتشير إلى وظيفتها في الليل والنهار، وفي المعاش والمعاد، وفي الخلوة والاجتماع، ومع الله والناس، بينما أخطأ كثير من الفلاسفة والعقلاء والعباقرة في فهم هذه الفلسفة وتحديد معالمها وآثارها، وقد أدى هذا الخطأ في الفهم بكثير من الناس إلى متاهات الضلال ومجاهيل العلم والحكمة.

ومـن العجيـب أن يصـل إقبـال إلى هـذا الفهـم العميـق للإسـلام والبصـيرة الـنيرة لرسـالته ودعوتـه، عـن طريـق التعلـيم العصـري، والدراسات العليا التي تلقاها في الجامعات الأوربية الكبرى حيث طالت إقامته لا كتساب العلم والتحقيق، وقد كان من المتوقع كما حدث مع غيره أن يجرفه تيار الحضارة المادية في سيلها، وتذيبه الفلسفة المادية إذابة كاملـة، وتوجـه مواهبـه الشخصـية ومؤهلاتـه العلميـة كلـها إلى خدمـة

الغرب وحضارة الغرب، والعقلية المنحرفة، ويشهرها سيفاً صارماً في وجه الإسلام والفلسفة الإسلامية، ولكن الله سلَّم إقبال من هذا الخطرالداهم، وصانه من أن يمسه نار الغرب بسوء، وهو في وسطها، كما صان سيدنا إبراهيم عليه السلام من نار نمرود، وقد تحدث عن ذلك بنفسه في بيت له، يقول ما معناه: "مكثت في أتون التعليم الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم عليه السلام من نار نمرود"[١].

كلما تعمق إقبال في الثقافة والعلوم ودرس النظم الوضعية والفلسفات المادية وسبر أغوارها تزايد إيماناً بحقيقة الإسلام وخلود رسالته وفاض قلبه ثقةً بالعقيدة الإسلامية وإيماناً بالله، وتوطدت صلته بربه فعاش معه في خلوات الليل وأذكار السحر، وناجاه بقلبه ولسانه وسمعه وبصره، وهوفي مراكز الفسق والفجور وفي غمار الفواحش والمنكرات، وحيث المغريات والمفاتن بألوان وأشكال، واللذائذ والشهوات من غير حد ولا قيد، فلينهب منها من يشاء إلى ما يشاء، من غير خوف ولا حياء، فمن الذي يمر بالأشواك ولا يشاك بها، ويمشي على الأوساخ ولا يصاب بها، ولكن إقبال رغماً من ذلك كله لم يتلوث بأي ذرة منها فضلاً عن أن يتوسخ بها ويستسلم أمامها، بل إنه أبى إلا أن يتثبت وسط هذه الإغراءات والحريات مسلماً حقيقياً متصلاً بربه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومتشبثاً بدينه ودعوته، متمسكاً بآدابه وتقاليده، وصلواته ومناجاته، حتى لم يفته قيام الليل ونجوى السحر في لندن وسط هذا الخضم المادي، كما يقول:

"إنني لم أحرم آداب قيام الليل والاتصال بالله تعالى في خلوات السحر حتى في لندن، رغم البرد الشديد والهواء القارس الذي كان

---

[١] روائع إقبال لسماحة الشيخ الندوي.

يعمل في الجسم عمل السيوف".

أما حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وعلاقته به فكان بالغاً إلى آخر المدى حيث يفديه نفسه وروحه، ويتفانى في ذكره وتصوره، يستروح رائحته، ويشم ريَّاه في جميع أحواله وأعماله، وذلك هوفي الحقيقة المنبع الثر للروح والقوة اللتين كان يتمتع بهما في حياته، وتتجليان في شعره، وإنه لم يعتز بشيء مثل ما اعتز بانضمامه إلى أفراد الأمة التي قائدها محمد، ذلك النبي العظيم والرسول الكريم الذي أشرقت له الظلمات وأضاء ت به الدنيا، ونالت به البشرية حياة جديدة، وبعث العالم من جديد.

شغل قلبه بحب النبي صلى الله عليه وسلم، وعمره بمودته الخالصة فلم يتمكن بريق العلوم والفنون وبهرجة الصناعات، والمدنيات من التأثير فيه، إنما واجه كل ذلك بغاية من الجد والصرامة، وفندها بقوة العلم والحجة وسلاح الحب والإيمان، يقول في شعره: "لم يستطع بريق العلوم الغربية ولمعان الحضارة الأفرنجية أن يعشي بصري، ويبهر عقلي فإنني قد اكتحلت بتراب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم".

هذا الحب الطاهر الخالص هو الذي كان رائده في جميع المجالات والنشاطات، وبه كان يستوحي المعاني الشعرية ويستلهم القوة المؤثرة في كلامه، ومن أجله كان يعيش ويتمنى أن يكون غبار طريقه وسواد ميله، يقول في شعر له:

"ولا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم وانقادت لي الصعاب، فإني من عبيد ذلك السيد الذي تشرفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدراً من النجوم، وجرى في أثره فصار أعبق من العبير"، ويقول: إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى، وهو أصل شرفنا ومصدر فخرنا في

العالم، إن هذا السيد الذي داست أمته كسرى كان يرقد على الحصير، إن هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وجدت أمة ووجد دستور، ووجدت دولة" (روائع إقبال لسماحة الشيخ الندوي)

لإقبال أفكار وآراء حصيفة حول التعليم العصري والعلوم والفلسفة والفنون، وعن الاجتماع والاقتصاد والسياسة، إنه استطاع أن يدرس أحوال وأوضاع الأمم والشعوب ويخوض في أبحاث الفلاسفة والمتكلمين، ويتوصل من كل ذلك إلى نتيجة طبيعية، من غير أن يقلد في أي شيء من هذه القضايا العلمية والسياسية أحداً غيره، وإنَّ له رأياً مستقلا في كل الأمور والشئون، مبنياً على أساس متين من الدراسة والتحقيق.

إنه يحلِّل جميع القضايا الحيوية والمشكلات الإنسانية في ضوء التجربة والدراسة للحقائق، فيرى أن مرد كل هذه المسائل والمعضلات هوتشر ب الآراء الدخلية الفاسدة والأفكار الهزيلة إلى المجتمعات الإنسانية، ونفوذ التأثيرات السيئة للفلسفات الجديدة التافهة التي قامت على أساس اللون والجنس مرة، والقوم والوطن والتراب والطين مرة أخرى، فنشأت بذلك أصنام وأوثان اتخذها الناس آلهة تعبد، سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا، وقد كان لأوربا السبق إلى هذه الغايات الرخيصة، وتصدى إقبال لتفنيد هذه الفلسفات والأفكار اللاغبة الشاحبة، وندد بأوربا التي تعتبر نفسها قائدة العلوم والفنون، ورائدة الحضارات والمدنيات.

يرى إقبال أن الإنسان الكامل هوحاجة هذا العالم، ذلك الذي إذا تولى زمام الأمر ساد في الدنيا العدل والنظام، وأدبرت قوى الشر

والطغيان، وعاش البشر في هدوء واستقرار، ويعتقد أن هذا الإنسان الكامل المثالي هو المسلم الحقيقي، المسلم الذي يعيش في الإسلام الكامل الذي يغطيه من كل الجوانب، فهويمثل الحياة الإسلامية، بكل ما فيها من معان، وهوخليفة الله في الأرض، وجدير بأن يرث الأرض وما فيها.

ولذلك فإن هذا الإنسان الكامل النموذجي هوضمان لتحقيق جميع مطالب الحياة والإنسان، وتوفير الأمن والهدوء في هذا العالم.

وأخيراً فإن إقبال لم يكن شاعراً كسائر الشعراء، بل إنه كان شاعر الرسالة والعقيدة، وشاعر الضمير والإيمان، فعاش إقبال وإن مرَّ على وفاته عقود من السنين، وكتب لشعره الخلود والحياة.

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي
أحد أعلام الأدب العربي الحديث(*)

لقد كان السيد مصطفى لطفي المنفلوطي من أعلام الأدب العربي الحديث متفرداً في نمط التفكير وأسلوبه الأدبي، له قدرة فائقة في صوغ القصص والأحاديث الغربية في قالب العربية، وقد مضى على وفاته قرن، ونشأ خلال هذه المدة كثير من الأدباء الذين ابتكروا أساليب جديدة، وقدموا الأدب في لون جديد جذاب، وأقبل عليه القرّاء ونال إعجابهم، ولكن أدب المنفلوطي مع ذلك كله لم يفقد مكانته وتأثيره، ولم يعد أسلوبه بالياً قديماً يطرحه الناس وينبذوه وراء ظهورهم، بل ثبت في مكانه وما زال يحتل مكاناً رفيعاً في الأدب العربي ويسيطر على عقول الناشئة وكتاباتهم".

عرفت مصطفى لطفي بادئ بدء بكتابه: النظرات أيام مطالعتي لبعض الكتب العربية الأدبية التي لا تثقل على نفس القارئ، بل تنشط النفس لقراءتها، وكنت يومئذ في بداية نشاطي لدراسة الكتب الأدبية، فقوي هذا النشاط واشتدت الرغبة وأقبلت على أدب المنفلوطي أدرسه وأتتبّعه وأحرص عليه.

وإني أحاول في هذه الفرصة بيان نبذة من حياته الأدبية والعلمية، وماذا أثر أدبه وأسلوبه في نفس الشعب وما تلقى الناس منه

(*) مجلة البعث الإسلامي، سبتمبر ١٩٥٦م.

في الفكر والأدب.

ولد السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط في مصر سنة ١٨٧٦ الميلادي، ونشأ في أسرة كريمة تعنى بالدين والفقه الإسلامي، فكان آباؤه يتولون القضاء ونقابة الصوفية منذ قرون، وقد أثرت هذه الثقافة في نفس المنفلوطي فنشأ على علم وصلاح، وترعرع وهو يحمل في جنبه حباً ونهامةً لتحصيل علوم اللسان وفنون الأدب وشوقاً إلى مجالس العلم وأندية الأدباء والكتاب، فبعد ماحفظ القرآن الكريم وتلقى العلوم الابتدائية في الكتاب انضم إلى الأزهر وعكف على أخذ علوم اللسان والأدب، وانهمك في الدراسة ومطالعة الأدب العربي حتى لم يرض بغير هذا العلم والأدب ولم يلق له بالاً.

وها هو المنفلوطي في الأزهر، ولم يمض على دخوله فيه زمن طويل إذ طار صيته في الأزهريين بذكاء قريحته وقوّة كتابته، وانتشرت شهرته لرغبته في الأدب وروعته في الأسلوب، فبينما هويكتب الفصول في النقد والاجتماع والقصص وينشئ الرسائل إذ هو يقرض الأبيات ويحفظ الأشعار ويصوغ الأدب صوغا جميلاً مبتكراً، وهكذا بدأت حياته في الأزهر تسير على مدرج علمي ومنهج أدبي إلى أن سنحت له فرصة لقي فيها الإمام الشيخ محمد عبده وأقام في صحبته برهةً، فرأى الشيخ فيه أديباً موهوبا وكاتبا مطبوعا، وقرّبه إليه وأنس به ورسم له خطّة عظيمة توصله إلى الغاية المثلى في حياته التعليمية والأدبية وتوثقت أواصره بالشيخ كما توثقت صلته بسعد باشا زغلول.

وقد كان المنفلوطي على جانب عظيم من الورع والعفاف لايضيع لمحة من حياته، بل ينفقها في إهمال ولهو، حتى إذا قدر الله له هذين العالمين الجليلين الشيخ عبده وسعدباشازغلول اغتنمهما وتلقاهما

كنعمة عظيمة، وقدر هما حق القدر فاستقى من هذين المنهلين العلميين العذبين، ولم يزل يروي منهما غلته ويسقي ظمأه، ولذلك كانا من أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي أديبا بارعا وكاتبا مرسلا.

كان المنفلوطي سليم الطبع، كريم النفس، راجح العقل، صحيح الفهم، دقيق الحسّ متورّعا شجاعاً في قول الحق يتقي مجالس الجدل والخطابة، ثم له ذوق متلائم وفكر متناسب وأسلوب متسق وعاطفة رقيقة وزيّ حسن، فيجمع بين رقة القلب وعفة الضمير وسلامة الصدر وصحة العقيدة ومكارم الخلق ونفحة اليد.

ظهر المنفلوطي وهوأديب موهوب وكاتب مطبوع، له مكانة ممتازة في النثر البليغ والأسلوب الرشيق والطريق المستقل يرسل النثر حلواً مسلسلاً، ويصوغ العبارة سبكا جيدًا وهوفي أدبه موفّق، حَظّ الطبع فيه أكثر من حظّ الصنعة، وله لون خاص بديع أنشأته طبيعته القوية وذوقه الصحيح، بل نستطيع أن نقول: إنه مؤسّسِ مدرسة تفكير خاصة وأسلوب منقطع النظير.

بدأ المنفلوطي الكتابة أول الأمر في مجلة (المؤيد)، فكتب الأقاصيص بلغة سهلة وأدب رفيع وأسلوب متسق وعبارة منسجمة، وقد ذاع أدب المنفلوطي، لأنه ظهر بعد فترة لم يألف الناس فيها بمثل هذا الأدب، وقد كان الناس في حاجة إلى أدب يصف آلامهم ويبين العيوب التي تسّربت في المجتمع على وترهم الحساس، فيبثّ فيهم الحياة والشعور، ويكون ذلك في أسلوب جذاب وبيان رشيق وعبارة متناسبة وألفاظ سهلة مختارة، فوقع هذا الأدب الرائع الذي ظهر على صفحات الموئد موقعًا حسنًا من الناس، وأقبلوا إقبالاً تاما حتى كان له نفوذ كبير في نفوس الشعب، ووافق ذلك هوى في قلوبهم، لأن المنفلوطي قد

تألّم بالعيوب والأدواء التي طرأت على المجتمع وتوجّع بالشرور التي دخلت النفوس من طريق الفوضى والتلاعب بالحياة، وقد يصح إذا قلنا: إنَّ أدب المنفلوطي وأسلوبه أثّر في الشعب العربي كما أثّرأدب "حالي" وأسلوبه في الشعب الهندي، لأن كلامن هذين الأديبين لهما نصيب في الفكر والأسلوب كبير وخاص، إلا أنه يمكن أن لايدوم أدب المنفلوطي وأسلوبه إلى زمن طويل، ويطرأ عليه الجمود، فيطرحه الناس كما يظن بعض المؤرخين" أنه لا توجد صفة الخلود في أسلوب المنفلوطي حيث تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة، وعلى كل حال فقد كان للمنفلوطي فضل في نقد المجتمع وإصلاحه وتغذية الفكر والذوق بأدب جميل، ويندر في هذا الزمن الثائر من يحمل أمانة البيان ويبلغ رسالة الأدب في أسلوب المنفلوطي في أدبه ولسانه.

وللمنفلوطي مؤلفات ومترجمات، وقد جمع ما نشره (في المؤيد) في كتاب أسماه (النظرات) في ثلاثة أجزاء، وصار هذا الكتاب في الأدب العربي ثروةً غاليةً لا يوجد لها نظير، وبعض الفصول في هذا الكتاب، ربما يشعر القارئ بلذة يلمسها فيه، ويمر على الكلمات فتترنح جوانبه بجلاوة، يجدها فيها مثلا(الكوخ والقصر) (الغني والفقير) و(الدفين الصغير) إلى غيرها من العناوين الأخرى، ثم له كتاب العبرات، ومختارات المنفلوطي، وماجدولين، والفضيلة، والشاعر، وكل هذا في أسلوب بليغ، وسبك رصين وزيادة ذات قيمة في الأدب العربي الرفيع والنثر البليغ.

توفي المنفلوطي سنة ١٩٢٤هـ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

العلامة الطبيب السيد عبد الحي الحسني
مؤرخاً وأديبًا (*)

أنجبت الهند في القرن التاسع عشر الميلادي شخصيةً بارزةً لامعةً، كثيرة الجوانب، مختلفة النواحي، متعددة الاهتمامات، وهي شخصية تعد بحق في طليعة كبار مؤرخي الهند وعلمائها، وتستحق أن تسمى ابن خلكان الهند بجدارة، وأن يسجل اسمها في قائمة الخالدين الذين خلفوا آثاراً باهرةً من العلم والأدب والتاريخ في المكتبة الهندية العامرة، وأسوة نادرة للجيل الحاضر والأجيال القادمة.

إنها شخصية العلامة السيد عبدالحي الحسني الذي عُرف في الهند والخارج على السواء بذكائه النادر وعلمه الجم ومادته الغزيرة ومكانته السامية في الثقافة الإسلامية الهندية، فهو عالم على طبقات رجال الهند وأعيانها، عارف بأخبارهم وأنسابهم وسيرهم وتاريخهم معرفة جيدة، وهو الذي قام بدور عملي مهم في البحث عن التاريخ الهندي، ووفَّر معلومات كبيرة كثيرة عن ثقافة الهند وآثارها ورجالها، وإن مؤلفاته تدل على مقدرته في التحليل التاريخي وتصوير الشخصيات، كما تمتاز بالتفكير المشرق، والمنطق المتماسك، والأسلوب البليغ، إنه عالم كبيرملحوظ المكانة، ومفكر ممتاز، ومرب، له في التربية والتعليم آراء قيمة ونظرات جديرة بالعناية والتقدير، لقد كان حريصاً على أن يفكر في

(*) مجلة البعث الإسلامي، شعبان ورمضان المبارك وشوال ١٣٩٥هـ.

مشكلات المجتمع الهندي، حريصاً على إصلاح الشعب ونفعه، ومآثره الجليلة وخدماته المقدرة في سبيل إصلاح منهاج التعليم والتربية وإنعاش مستوى المجتمع الإسلامي الهندي لا تنسى على مر العصور والعهود.

ولد العلامة السيد عبد الحي الحسني في بيت علم ودين وصلاح وإرشاد في زاوية السيد علم الله على ميلين من بلدة "راي بريلي" من أعمال "لكناؤ"عاصمة ولاية (أترا برديش)، وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هاجر جده قطب الدين محمد المدني من بغداد إلى الهند في فتنة المغول، وجاهد جهاداً عظيماً وتولى مشيخة الإسلام في دهلي، وقد نبغ من ذريته كثير من رجال حملوا راية العلم والمعرفة والإصلاح في القارة الهندية وتزعموا حركة الإصلاح والتجديد في هذه البلاد، وقد اشتهر من هؤلآء السيد أحمد الشهيد الذي حمل لواء الجهاد والثورة ضد الطغاة والظالمين، ولولا دسيسة بعض الخونة الذين دخلوا في جماعته سراً لكانت الهند قد نالت حريتها المرجوة قبل اليوم بقرن ونصف قرن من الزمان.

نشأ العلامة عبد الحي على حب الا طلاع والعكوف على قراءة تاريخ الهند العلمي والسياسي وعلى معرفة طبقات الرجال وخصائصهم ودقائق أخبارهم، وقد اهتم بذلك بالغ الاهتمام حتى تمكن من إحاطة الجوانب التاريخية الدقيقة، والاقتدار على إخراج دفائن حضارة الهند القديمة ما بين الثقافة والسياسة والأديان والأفكار، وكان متوسعاً في ثقافته، متعمقاً في علمه إلى أن أخرج مؤلفاً كبيراً سماه "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" في ثمانية مجلدات ضخمة، تحوي تراجم أعيان الهند ومآثرهم وأخبارهم مما يتعلق بثقافتهم وأعمالهم وألقابهم وأنسابهم وسني وفياتهم، وهذا المؤلف العظيم ملخص

ومقتبس من ثلاث مائة كتاب في العربية والفارسية والأردية، من بين ما هوخطي ومطبوع، وعصارة دراسات طويلة في التاريخ الهندي حتى أصبح يتناول تراجم أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة ونيف، من القرن الأول الهجري إلى القرن الحاضر، وهو بذلك موسوعة تاريخية نادرة ودائرة معارف في تراجم الشخصيات الهندية البارزة يكاد يعز نظيره في المكتبات التاريخية الحديثة.

وله مؤلف آخر باسم "الهند في العهد الإسلامي" يحتوي على تاريخ الهند الإسلامي، وجغرافية الهند وحاصلاتها وأشجارها ونوادرها وحِرف أهلها وحيواناتها ومعادنها وأجناسها وصناعاتها ولغاتها وأشهر مدنها وقراها في الدولة الإسلامية، كما يحتوي على أخبار ملوك الهند، وتاريخ ظهور الإسلام والأسر التي حكمت الهند وأخبار السلطة الإنجليزية، وخطة ملوك المسلمين وعوائدهم في السلطنة، وآثارهم ومؤسساتهم من الشوارع والبريد والحياض والأنهار والحدائق والبساتين، والجوامع والمساجد والمدارس والمستشفيات، والمقابر العظيمة ونوادر ما وضعوه في الهند.

وقام المجمع العلمي العربي بدمشق سنه ١٩٥٨م بطبع كتاب له باسم "الثقافة الإسلامية في الهند"، وهوكتاب فذ في موضوعه، يبحث في تاريخ نظام الدرس في هذه البلاد جيلاً بعد جيل، وتاريخ الفنون الأدبية من النحووالصرف واللغة والبلاغة والإنشاء والشعر والتاريخ والجغرافية، وتاريخ العلوم الشرعية: الفقه والحديث والتفسير والتصوف والكلام وتاريخ الفنون النظرية من الفلسفة والمنطق وعلم الطبيعة والإلهيات وفي تاريخ الشعر والشعراء.

إن هذه المؤلفات الثلاثة تعطينا فكرة صادقة عن موقفه من التاريخ

الهندي وشغفه الزائد بالاطلاع على الحقائق العلمية الثقافية التي ظلت مختفيةً عن أنظار الناس، وربما أهملها المؤرخون وأغفلوها في مؤلفاتهم وكتبهم، وكان مع ذلك متضلعاً من العلوم، وراسخ القدم في آداب اللغة العربية والفارسية والأردية، بارعاً في الفقه والتفسير والحديث والسير، عارفاً بأحوال الهند وحضارتها وحركة التأليف والنشر في عهود الدولة الإسلامية. وكان متوفراً على مطالعة الكتب والمؤلفات، وكل ذلك يتجلى بوضوح في المكتبة التاريخية العظيمة التي أنشأها في شكل مؤلفات قيمة نادرة للجيل الحاضر والأجيال القادمة.

وعند ما قامت حركة ندوة العلماء الشهيرة عام ١٣١٠هـ المصادف ١٨٩٢م أسهم فيها العلامة السيد عبدالحي إسهاماً وافراً لما رأى فيها من فائدة عظيمة للشعب المسلم الهندي، وأقام بلكناؤ وتفرغ لخدمة العلوم الإسلامية عن طريقها، وعكف على خدمة ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها احتساباً للّه تعالى مدة من الزمان حتى أصبح موضع ثقة الناس ومركز إعجابهم، وعين أميناً عاماً لندوة العلماء ومديراً لشئونها، فقام بذلك خير قيام وأثبت كفاء ته وجدارته بالمسئولية التي تحملها كمساعد الأمين العام ونائبه، في فترات مختلفة، إنه منذ أن قبل منصب مساعد الأمين العام أقبل على إصلاح الشئون الإدارية وتنظيم الأمور، وبعث في الموظفين روح الشعور بالمسئولية، وكان لا يتقاضى مقابل ذلك كله أي مرتب، ولكن المسئولين عندما رأوا شغفه بالعمل وانهماكه في أداء المسئولية ألحوا عليه بقبول مرتب فرضي بذلك.

وهو الذي قام بتنشيط أهداف ندوة العلماء وتقديم أعمالها وتوسيع نطاقها، فمن تنظيم جولات دعوية إلى القيام بشئون إدارية كان الاعتماد عليه وحده، ولما أقعد المرض الشيخ محمد علي المونجيري كان

العلامة عبد الحي عمدته ويمينه في كل ما كان مسئولا عنه، وفوض إليه أمور ندوة العلماء، علماً منه بجدارته لتحمل هذا العبء العظيم وقبوله منصب الأمين العام، وقد ظل على ذلك إلى أن توفي في فجر القرن العشرين سنة ١٩٢٠م.

وللعلامة عبدالحي كتاب قيم في الحديث الشريف، جمع فيه ذخيرةً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مما يتصل بتهذيب الأخلاق وإصلاح المجتمع، سماه "تهذيب الأخلاق"، وقد صدر مؤخراً من الكتب الإسلامي بيروت.

وهو موجز القول أن العلامة السيد عبدالحي الحسني مفخرة من مفاخر الهند ومعجزاتها التي لا تزال موضع غبطة وفخر لكل من يعيش في هذه البلاد ويتصل بأسرتها العلمية الثقافية، ولكل من له علاقة بالتاريخ الهندي والحضارة الهندية، وصلة برجالها الأعلام الذين رفعوا رأس الهند عالياً في الأوساط العلمية الثقافية، ومنحوها قدوةً في العلوم والثقافات، وقيادةً في مختلف ميادين الحياة.

إن العلامة السيد عبد الحي الحسني قام وحده بخدمة جبارة لا تقوم بها جماعات، وأدى وحده عملاً لا تؤديه المجامع العلمية في كثير من البلاد، وله بذلك منة كبيرة على هذه البلاد وشعبها وعلمائها المؤرخين اليوم، ولولا مؤلفاته القيمة لضاع جزء كبير من تاريخ الهند الإسلامي.

وبمثل هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال الأمور قضى العلامة السيد عبدالحي عمره، وسجل له خلوداً منقطع النظير في تاريخ الهند الإسلامي.

رحمه الله تعالى وأغدق عليه نعمه.

فقيد الأمة الإسلامية

الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي(*)

استقطبت وفاة سماحة شيخنا ومربينا العلامة السيد أبي الحسن على الحسني الندوي العالم بأسره، لكي يبدي حزنه على هذه الخسارة الفادحة، التي أحست بمرارتها جميع طبقات الأمة على اختلاف أقطارها، وتباين ديارها، فإن رسائل وكلمات التعازي، التي انهالت على مقر الفقيد بأسماء أولاده وتلاميذه النجباء، تشهد بعلوالمكانة، التي كان يحتلها سماحته، وتعبر عن المحبة الخالصة، التي تركزت في قلوب الناس للقدوة الإيمانية، التي حملها فقيد الأمة الإسلامية، فقد كان مصداقاً للحديث النبوي، الذي جاء فيه: "إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع القبول في الأرض".(متفق عليه)

عاش فقيد الأمة رحمه الله حياة ملؤها جد وجهاد، وتضحية وإخلاص، وجمع متزن بين العقيدة والسلوك، وبين العلم والعمل، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين السيف والقلم، وبين الرؤية والتطبيق، ذلك هو الاتزان الذي دفعه إلى التركيز على الموضوعية الخالصة،

(*) مجلة البعث الإسلامي، المجلد: ٤٥، العدد: ٤ -٥ -٦، ذو الحجة ١٤٢٠هـ، محرم الحرام وصفر المظفر ١٤٢١هـ.

ودراسة مقارنة للديانات والفلسفات، والدين الإسلامي، وحضارته الإنسانية، التي كانت رحمة للعالم البشري أجمع، إنه درس تاريخ الأمم بتعمق وحياد وواقعية، واستنبط منه نتائج إيجابية، تفرز ما قد واجهته حضاراتها وفلسفاتها من اندثار وانهيار، ومن هنالك كان الطريق مفتوحاً بكل وضوح للحضارة التي جاء بها الإسلام، وحدب بها على الإنسانية المعذبة الشقية التي كانت تئن تحت وطأة العقول المادية، والقوى الطاغية.

إنه جعل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم محوراً أساسياً للفكر الإيماني الذي عاشه، وانطلق منه إلى جميع التأملات والدراسات في الحياة والكون والإنسان، واتخذه قاعدةً للعمل الإسلامي الشامل الذي قام به، والدعوة الإسلامية التي تبناها، ونذر حياته لنشرها بين العالمين، وجنّد كل مؤهلاته وطاقاته لإعلاء كلمة الإسلام، وفلسفته العلمية والحضارية بإزاء الحضارات والمعتقدات الزائفة، وقد كان يدرس ظروف العالم الاجتماعية والسياسية، وأوضاع الأمم والشعوب، ويستعرض أحوال المسلمين في كل مكان، وما يعيشونه من ضعف أووهن ومحن، ويهتم بكل ذلك غاية الاهتمام، ويستطلع الحديث الأحدث من المعلومات على الصعيد العالمي، ويفكر في إعداد الوسائل الحقيقية التي تتكفل برفع معنويات المسلمين وإنقاذهم من الأوضاع السلبية التي يعيشونها ويقتنعون بها.

كان شديد التألم بالمؤامرت التي تدبر ضد الإسلام والمسلمين من دول العالم الكبرى، واللوبيات المنحرفة المعادية، ومن رأى قلقه الشديد، وأرقه الدائم على ما جرى من حروب وغزو وإجراءات من القمع والتشريد في ديار المسلمين، وأوطانهم في الماضي القريب، لعلم

أنه كان من رجال التاريخ السابقين، والأئمة الأعلام الذين عاشوا هموم الأمة، وأحزان المسلمين، ولم يهنأ لهم الأكل والشرب، ولم تضحك لهم الحياة يوماً ما.

لقد كانت حياته ذات مناحٍ متعددة، وجوانب كثيرة، فكان عالماً بصيراً، وداعية كبيراً، ومفكراً إسلامياً، وأديباً فذاً، ومتكلماً بلغة العصر، وخطيباً بارعاً يتحدث عن القضايا المستحدثة، ومربياً يتناول الناس بحكمة بالغة، وكاتباً قديراً سابقاً على أسلوب الزمن، وأستاذاً رحيماً معنياً بتلاميذه بلطف ورحابة صدر، كان يُدعى إلى المؤتمرات العالمية، والندوات العلمية، والاجتماعات الدينية، والمحافل الدولية، فيستجيب للدعوة حرصاً على أن يقوم بواجب دعوي، أو يكون سبباً لإقناع الناس بالإسلام، ومنهجه ورسالته، وإعادة الثقة بالإسلام إلى نفوس العائشين في شكوك وشبهات حول صلاحيته لهداية البشر، وتوفيره أسباب السعادة للحياة الإنسانية، في خضم الحضارات والفلسفات المادية، وكان يتحين الفرص لتفنيد الأفكار الزائفة، والرؤى المنحرفة، خلال أحاديثه أوخُطبه، ومحاضراته.

كان الدين هو الهدف الأول، والأخير له، في كل شأن، وفي كل مكان، ومهما كانت الظروف والمصالح تتطلب أن يسكت عنه، ولكنه تجاهر بالدين، ودعا إليه من غير خوف، وبدون مبالاة بالعواقب، لأن حياة المسلم لاتستغني عن الدين للمحة واحدة، ولن ترجوخيراً فيها من غير الدين، فالدين هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله حياة كل مسلم، وكلما أصيب فيه بوهن أوضعف، فإنه لن يفلح، ولن يسعد، ولن ينجو من عاديات الزمان، ونوائب الحدثان، والمصائب والرزايا التي تطارده في كل حين وآن.

وفقه الله سبحانه وتعالى إلى هدم تلك الحواجز النظرية التي كانت تحول دون رؤية وجه ندوة العلماء المشرق، والاطلاع على حركتها الفريدة، وهدفها الواضح النير، وطوى الشقة بينها وبين المراكز العلمية والتربوية الأخرى في الهند، وقام بدور عظيم في تقريب الصفوف، وإزالة جدران من سوء الظن بندوة العلماء، حتى إن كثيراً من الناس تأسفوا على النظرة التي كانوا يرون من خلالها هذه المؤسسة العلمية التربوية الكبرى، وما كانوا يعتقدون فيها من اعتقادات خاطئة.

فحققت ندوة العلماء في عهده المشرق إنجازات وجيهة في كل مجال من التعليم والتربية، وشرح الحضارة الإسلامية، وتفسير مقاصد الدين، ومفاهيم الحياة الإسلامية، وتصحيح مسار العلم والتحقيق، وإبراز وجه الشريعة الإسلامية جميلاً نيراً من خلال ركام الأفكار والنظريات الباطلة، إنه خطط الغرض الأصيل لندوة العلماء بكل وضوح، ووضع كل إمكانياته ومجهوداته في سبيل ذلك، حتى وفقه الله تعالى لإعداد جيل من تلاميذه المخلصين ممن ساروا معه على الدرب، وتابعوه على الخط المستقيم، وساعدوه بكل ما استطاعوا من الطاعة والولاء، فكانت ندوة العلماء في عهده مناراً شامخاً للعلم والدين، والأدب والشريعة، ومثالاً فذاً للجمع بين الإيمان الراسخ، والعلم الواسع، وحاملة لراية العقيدة النيرة، والعلم الحديث، وداعية إلى تحكيم الشريعة في جميع شئون الحياة، وهاتفة بهتافها الوحيد: "إلى الإسلام من جديد".

إنه لم يتأخر لحظة واحدة في حياته عن تقديم مهجته وروحه في سبيل الدعوة إلى الله، ونشر الفكرة الإيمانية السليمة، وتحكيم الشريعة الإسلامية وإعادة الثقة بالإسلام إلى نفوس الأجيال البشرية، وشرح أن الإسلام هو

الطريق إلى السعادة والنجاح مهما تغيرالزمان، وتطور الإنسان.

والجدير بالذكر والشكر أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز المعظم عاهل المملكة العربية السعودية، قد تكرم في المناسبة، بالتعزية الكريمة، وأمر رئاسة الحرمين الشريفين بإقامة صلاة الغائب على روح الفقيد (رحمه الله)، وذلك ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ١٤٢٠هـ، كما أن صاحب السموالشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي المعظم، حاكم الشارقة، تكرم بإجراء مكالمة هاتفية مع سعادة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، وآل سماحة الفقيد، وبعث بالتعازي القلبية إلى الجميع.

أما صاحب السموالشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير دولة قطر، فإنه تكرم بتوجيه وفد محترم مؤلف من ستة كبارالعلماء برئاسة سعادة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي على طائرة أميرية خاصة لتقديم عزاء الحكومة القطريه، والشعب القطري، وعلماء قطر في سماحة الفقيد رحمه الله.

وكان أعضاء الوفد، هم: سعادة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وفضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله آل محمود، رئيس المحاكم الشرعية، وفضيلة الشيخ خليفة بن جاسم الكواري، مدير إدارة الشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، وفضيلة الشيخ عبدالقادر العماري، القاضي بالمحكمة الشرعية سابقاً، وفضيلة الدكتور عبدالعظيم الديب، أستاذ الفقه الإسلامي في كلية الشريعة جامعة قطر، وفضيلة الدكتور ثقيل بن ساير الشمري، نائب رئيس محكمة الاستئناف. بالمحاكم الشرعية لدولة قطر.

وكذلك أمر صاحب السموالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

المعظم، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، بإرسال التعزية في سماحته بواسطة نجله الكريم، سموالأمير الشيخ سطان بن زايد آل نهيان، نائب رئيس الوزراء.

وبعث سعادة الدكتور عبدالقدوس أبوصالح، نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، سعادة الدكتور عبد الباسط بدر، الأمين العالم للرابطة إلى لكناؤ ورأي بريلي، لكي يقدم التعزية من قبل أعضاء الرابطة في سماحة الفقيد رحمه الله.

ومنذ وفاة سماحته جاء ت وفود العزاء تترى إلى أعضاء أسرة الفقيد رحمه الله، وعلى رأسهم خلفه سعادة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، رئيس ندوة العلماء العام، ومازالت رسائل التعزية، ومقدم الوفود مستمرة إلى مدة، الواقع الذي نستطيع أن نقدر به مدى التأثر العميق الذي خلفته وفاة سماحته في النفوس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذوالفضل العظيم.

الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي في ضوء أفكاره النيرة (*)

يوم كان سماحة العلامة الندوي رحمه الله تعالى على قيد الحياة، ويعيش هموم الأمة الإسلامية وآلام المسلمين، ويتجرع مرارة الحوادث والأوضاع الشاذة التي كانت تدخل المجتمعات الإسلامية تارة، وأخرى كانت تدق أبواب الأقليات الإسلامية في الشرق والغرب، كان المسلمون يستوحون منه العلاج، وطريق المواجهة والدفاع عن كيان الشخصية الإسلامية والوجود الإسلامي، وكانوا يتعلمون منه أسلوب الحكمة والموعظة في الدعوه إلى سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الظروف المضادة، والصمود في وجه الباطل، والظلم والعدوان، كانوا يتعلمون منه كل ذلك كما يتعلم التلميذ من أستاذه الكبير، والأولاد من أبيهم العالم الحكيم، فقد كان فقيد الأمة الإسلامية مكباً على أداء مسئوليته من جميع النواحي، من طريق العلم والتوجيه، والتأليف والكتابة، وتحمُّل المشاق في الجولات الدعوية، وتوجيه الخطاب إلى الناس في الندوات والمؤتمرات العالمية، وفي الاجتماعات والحفلات العامة، وفي المجالس والمحافل الدولية، وفي الرحلات الطويلة التي كان يقوم بها لمصلحة الدعوة إلى الله، والعمل في مجال الإصلاح والتربية، واستعراض الحياة التي يعيشها المسلمون بوجه

(*) مجلة البعث الإسلامي، ج: ٤٥، ٤: ٧، ربيع الأول ١٤٢١هـ.

عام، وتفقُّد أحوال الأمة، والاهتمام بشأن الشباب، وتعيين مواضع الضعف والداء في طبقات المسئولين عن الحكم والسياسة، والإشارة إلى الدسائس والمخططات الإجرامية التي يدبرها أعداء الإسلام ضد العالم الإسلامي، والأمة الإسلامية.

كان يركز تفكيره على الوضع العالمي العام، ويدرس بغاية من الدقة والتعمق الإعدادات الهائلة التي كانت تترقب الفرص للهجوم على المسلمين، والأسلحة الفتاكة التي كانت تنتجها مصانع الغرب للقضاء على الأمة، والإتيان على آخرها، فكانت مجريات الأمور، وأوضاع الشعوب، وأفكار الزعماء والقادة الذين يحلمون بالسيطرة الكاملة على العالم الإسلامي كله، كل ذلك كان ككتاب مفتوح أمامه، يقرأ فيه نشاطات الخصوم، وتضامنهم على إطفاء نور الله، وما يسعون إليه من تجميع الطاقات، وتركيز القوى، وتنشيط الوسائل، لتدمير المسلمين، وتشكيك أذهانهم، وإزالة الثقة بالإسلام من قلوبهم، وتفنيد حضارته، فكان رحمه الله ينبه طبقات الأمة إلى هذا الخطر العظيم الذي يواجه الإسلام، ويتحدى وجوده وبقاء الشريعة الإسلامية، كان يستلفت أنظار المسلمين على جميع المستويات إلى الشعور بهذا الوضع الخطير، ويطالب منهم النهوض لمواجهته، وردّه إلى الوراء.

إنه نفخ روح النشاط والجهاد، والعزم الصادق، والحب والإخلاص في كل طبقة من طبقات الأمة، ولم يأل جهداً في السعي الدائم، والعمل الدؤوب المستمر في هذا المجال، فإن أعماله وخدماته وإنجازاته الواسعة خير مؤشر إلى علو مكانته في صفوف الدعاة والعاملين في سبيل الله تعالى، وعلماء الأمة وأعلامها، وإلى التوفيق الغالي الكريم الذي أكرم به من لدن رب العالمين، لقد بارك الله تعالى في

أوقاته وأعماله، فاستطاع أن يخلف تراثاً ضخماً من العلم والفكر، وأسلوب الدعوة والعمل، ويقدم إلى أوساط العلم والدين، والفقه والبصيرة، وإلى أصحاب القلب والمعرفة، مكتبة عظيمة من مؤلفاته القيمة، ورسائله النادرة، ونتاج أفكاره النيرة، والثقافة الواسعة التي يحتاج إليها الدعاة والعلماء والعاملون في كل زمان ومكان.

تلك هي الشمولية العظيمة التي تميز بها فكره الديني، والجامعية الكبيرة التي وسعت جميع جوانب العلم والعمل، والعقيدة والسلوك، أضف إلى ذلك تورعه الخالص، وإخلاصه النادر للّه تعالى، وزهد ه عن حطام الدنيا ومتاعها، وإعراضه عن كل جاه ومنصب، مع اتصاله العميق بالله تبارك وتعالى الذي بوأه المنصب العالي في العلم والدين، ورزقه القبول العام بين جميع العالمين، فكان رحمه الله مثالاً فريداً للمسلم العالم العامل، والجامع بين الإيمان والعلم، والعقيدة والسلوك، والقلب والعقل بكل توازن واعتدال، وذلك الجانب المهم الذي يندر نظيره في كل طبقة من طبقات المسلمين، قد يكون المرء بالغاً إلى النهاية الأخيرة من الأوصاف الإنسانية، والتميزات العلمية، وقد يكون جامعاً بين نواح عديدة من الإخلاص والأمانة، والطهر والعفاف، ولكنه ينقصه التوازن في الأمور والاعتدال في شئون الحياة من الآداب والفضائل، إلا أن الفقيد الغالي الكريم قد رُزق هذا الاتزان الشامل على خلاف زمانه الذي عاش فيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذوالفضل العظيم.

لقد تحدث كثير من أصحاب العلم والقلم، والفقه والبصيرة عن فقيد الأمة الإسلامية، وأشادوا بجلائل أعماله، وخصوبة أفكاره، وربانيته وإخلاصه، ولا يزال العالم كله يشدو بخدماته، ويعترف

بسمومكانته في كل مجال، ويحلولي الآن أن أنقل هنا ما قد قاله وكتبه أحد أعلام الأمة، وهومعالي الشيخ الدكتور محمد عبده يماني، وزير الإعلام السعودي الأسبق، يقول:

"ومن يتتبع مسيرة الشيخ الندوي رحمه الله يجد أنه قد أمضى حياته المباركة التي ناهزت السابعة والثمانين سنة في جهاد متصل وعمل دائب، وترحال كثير في أقطار العالم الإسلامي، وفي الغرب والشرق، وهو يدعو إلى الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، ينصح الناس ويعلمهم، ويزور العلماء ويجلهم ويشجعهم، ويبادلهم الرأي والمشورة، ويهتم بشئون العالم الإسلامي كله، فلم يقتصر على شبه القارة الهندية، ولا على البلاد العربية والإسلامية، بل اهتم بالمسلمين حيثما وجدوا في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وكان يخص كل بلد عربي أوإسلامي بزيارة متأنية، يعيش بين أهله، ويدرس أوضاعه وأحواله، وما هوبحاجة إليه من المدارس والمساجد والعلماء، وما فيه من الجماعات الإسلامية، فيدعوها إلى جمع الكلمة، ووحدة الهدف، ويحاول التقريب بينها، وجمع كلمة زعمائها، ويجتمع كذلك بأهل الحل والعقد من الأمراء والملوك والرؤساء، وينال التقدير والتبجيل، والتشجيع والإعجاب، وما كان هذا ليكون لولا إخلاصه لدينه، وقدرته الفائقة على التأثير في قلوب الناس، ولا يتأتى هذا إلا للقلة النادرة من العلماء والعاملين والدعاة الموهوبين!!"

أما الندوات العلمية والدينية التي عُقدت، ولا تزال تُعقد حول شخصيته رحمه الله في الهند وخارجها على السواء، وبالأخص ما عُقد في جامعة على جراه الإسلامية، وفي جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وفي جامعة نور الإسلام في نيبال، وفي مدينة "لكناؤ"، ومدينة

"راي بريلي" من قبل المدنيين، وغيرها على المستوى المحلي، وكذلك استمرارية العزاء من خلال الأفراد والجماعات مباشرةً، وعبر الرسائل والكتابات والزيارات، فإن ذلك كله يشير إلى ما وضع الله سبحانه من القبول العام، والجاذبية الكبيرة في شخصية الفقيد الغالي.

وما زالت الصحافة الإسلامية تصدر أعداداً ممتازة عنه، اعترافاً بمكانته في العلم والدين، وإشادةً بعظم شأنه في الدعوة والفكر الإسلامي.

ومما لاشك فيه أن وفاة العلامة الندوي رحمه الله كانت خسارة كبيرة للأوساط العلمية والتربوية، وقد سببت فراغاً كبيراً في أوساط الدعاة المخلصين والعاملين للإسلام في كل مكان، ولا يزال الفراغ الملموس قائماً يحسّ به كل من له علاقة بقضايا الأمة، وصلة بمسئولية الدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكل من يأتي في عداد الأمة التي أشاد الله تعالى بذكرها في كتابه العظيم، فقال:

"وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (سورة آل عمران، الآية: ١٠٤).

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون

والله يقول الحق، وهويهدي السبيل.

الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
هيهات لا يأتي الزمان بمثله!

فأجأنا هذا النبأ المفجع وملأنا كمداً وغماً أن سعادة أستاذنا الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، ظهر يوم الخميس في ٢١/ رمضان سنة ١٤٤٤هـ، الموافق ١٣/ أبريل ٢٠٢٣م، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الشيخ نازلاً في دار الضيافة لندوة العلماء منذ أسبوع لمرض عادي، وكان يشكو النزلة والحمى كعادته في هذا العمر، وما كان يُخشى أنه سيفارقنا على عجل، وقد كنت عنده بعد صلاة الظهر في ذلك اليوم، وكان مضطجعاً على فراشه، لا يتكلم شيئاً، كأنه مغشي عليه، فما إن وصلت إلى البيت حتى سمعت هذا النبأ الحزين، المفتِّت للأكباد، وقلت بلسان الشاعر:

يا أيتها النفس أجملي جزعا
فإنك ما تحذرين قد وقعا

لا شك أن الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي كان خليفة إمامنا ومربينا الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وقد خلفه في جميع الشئون العلمية والإدارية في ندوة العلماء، وكان موفقاً كل التوفيق في أعماله ونشاطاته، ذلك لأنه تربى على يديه، ودرس عليه، ورافقه في سفره وحضره، وحله وترحاله، وقد نال من شفقته وعنايته ما جعله جديراً بالمؤهلات العلمية والدينية، وكان الشيخ

محمد الرابع الحسني الندوي يجمع في شخصيته صفات متنوعةً ومزايا مختلفةً، فكان في جانب عالماً ربانيا، وقائداً دينياً، وأستاذاً شفوقاً، وواعظاً قديراً، وصحافياً بارعاً، وإدارياً خبيراً. وفي جانب آخر كان متميزاً بمكارم الأخلاق، إنه رأس ندوة العلماء، وقاد هيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، وأشرف على هيئة التعليم الديني لولاية أترابراديش، كما راقب عن كثب نشاطات وفعاليات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وكانت مشوراته السديدة، وأقضيته المبرمة تقود الأمة الإسلامية الهندية على خطى حثيثة، وكان سكوته مثل البحر، وتواضعه مثل الأرض، وقوته وصلابته مثل الجبل، وعلو همته مثل السماء، ففاق بهذه الميزات بين أقرانه، وليس في عصره من يشاركه في هذه الصفات.

كانت رسالة حياته الدعوة والإصلاح، وبناء الإنسانية، فاستخدم لذلك طرقاً شتى من التأليف والوعظ والتدريس والصحافة، وكان مطلعاً على نفسيات المستمعين والمخاطبين، وخبيراً بأحوال الأمم والشعوب، وقد زار البلدان، وجال في الأقطار ورأى أوضاعها ودرسها دراسةً واعيةً، فكانت كلماته وخطبه حول الموضوع حديثاً عن تجارب موسعة، فكل من زاره أو لقيه أو سمع كلامه تأثر به للغاية.

كانت مجالسه العلمية والإصلاحية تعقد بعد صلاة العشاء في دار الضيافة لندوة العلماء، يحضرها أساتذة الدار وطلابها، وكنت أيضاً من المستمعين إلى هذه المجالس، وهذه السلسلة ليست حديثةً من نوعها، فقد كان الإمام العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي يعقد أمثال هذه المجالس لإفادة الأساتذة والطلاب وعامة الناس، وكان الناس من المثقفين والعلماء في مدينة لكناؤ يحضرون هذه المجالس

الدينية، ويستفيدون منها، وظل على هذا الدرب الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي بعد ما عُين رئيساً لندوة العلماء، فأحياناً تُقرأ كتب علمية ودينية في هذه المجالس، وأحياناً يقدم أمام الحضور ما بدا له من الأمور الدينية والإصلاحية.

وكان من فضل الله تعالى على نفسي أني التحقت بدار العلوم لندوة العلماء كطالب علم منذ ١٩٥٢م، ومن أول يوم تعرفت على أستاذنا الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، ثم توثقت هذه الصلة به إلى آخر أنفاس حياته بحمد الله وفضله، ويغطي ذلك مدة زمانية حوالي ٧٥ عاماً، وكنت خلال هذه المدة أمام أستاذنا كمحب وتلميذ ومسترشد له، أتشاور معه، وأساعده في شئونه العلمية والإدارية، وقد درست عليه في السنة الأولى للتخصص في الأدب العربي كتاب رنات المثالث والمثاني لأبي الفرج الأصبهاني، (وهو تلخيص للأغاني)، وكان أسلوب أستاذنا أسلوباً جميلاً رائعاً، حينما يشرح الكلمات والمفردات فيخوض في فقهها وباطنها، وردت مرةً خلال الدرس كلمة: حِين في معنى الوقت، فقال: حان يحين حِيناً معناه قرب، مثلاً: حانت الصلاة، وحين جمع أحيان، قال الشاعر العربي:

وأحيانـــاً علـــى بكـــر أخينـــا
إذا مـــا لم نجـــد إلا أخانـــا

وحان يحين حَينا بفتح الحاء في معنى: هلك، والحَين بفتح الحاء: الهلاك والدمار، قال العرب: نحن في يد الحَين بين البحرين، وقالوا: حيَّنه الله: أهلكه الله تعالى.

وحينما بدأ أستاذنا تأليف كتاب منثورات من أدب العرب فكلفنا أن نقوم بشرح الكلمات الصعبة الواردة في هذا الكتاب، فقمت بهذا

الواجب امتثالاً لأمره، ولا يزال هذا العمل في حاشية الكتاب، ولا ننسى أبداً مساهمته وتشجيعه البالغ على إصدار مجلة البعث الإسلامي الصادرة من ندوة العلماء منذ عام ١٩٥٥م، فإنه أفادنا (أنا وزميلنا الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله) بتوجيهات قيمة، وما زالت المجلة تنال عطفه ودعمه العلمي منذ أول يومها، ففي ملفاتها نشرت له مقالات أدبية، بحيث لو جُمعت في مجموعة لأخذ ذلك صورة كتاب أدبي قيم، وفي آخر سنوات حياته لا تزال تنشر مقالاته حول مواضيع متنوعة إما مترجمةً أو أصلاً تعميماً لنفع القراء.

صدرت صحيفة الرائد باقتراح أستاذنا الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، وهو المؤسس ورئيس تحريرها الأول، فإنه جعلنا من مساعديه ومستشاريه، وكلفنا أن نكتب كلمةً أو قصةً في عمود الأطفال، وحينما أصبح الرئيس العام للصحيفة جعلنا نائب الرئيس لها، والحمد لله على ذلك، ولا أزال أكتب في صحيفة الرائد منذ أول يومها، وقد خصص لنا أستاذنا عموداً باسم: كلمة الرائد، وهو عمود معروف في الصحيفة، يعرفه كل من يقرأ الصحيفة أو يطالعها.

كم أذكر لأستاذنا من مآثر وحسنات في حياته، فإن حياته حافلة بالإنجازات العلمية والأعمال الجليلة، ومن سعادة حظي أنه قدم لعدد من كتبي ومؤلفاتي، ولا سيما شعراء الرسول في ضوء الواقع والقريض الذي كان مشرفاً عليه إلى إنجازه لنيل شهادة الدكتوراه، وقد شرفني أن أقدم لبعض كتبه ومؤلفاته، فكتبت تقديمات وكلمات تعريف بعدد من مؤلفاته، وهي تطبع وتنشر من دور النشر والتوزيع، وقد كتبت شيئاً حول مؤلفه القيم الذائع الصيت المعروف: الهداية القرآنية سفينة نجاة للإنسانية: "ظهر في كل عصر وزمان علماء العربية بدراسة القرآن الكريم

والتعمق في معانيه ودقائقه، وتلقاه الناس بغاية من الاحترام والإعجاب والتقدير، واستفادوا مما جاء فيه من إشارات وبيانات لنزول السور والآيات وشرح مفاهيم التشريع والتطبيق العملي الذي احتوى عليه كلامهم، وقد كان في الزمن الأخير مؤلفات كثيرة عن فضل كتاب الله تعالى وعظمة بيانه وشرفه وتطابق معناه مع طبيعة الإنسان والكون، فكان لسماحة العلامة السيد محمد الرابع الحسني الندوي كتاب حول انطباعاته عن كتاب الله تعالى في ضوء أقوال وآراء علماء التفسير، وما فيه من دعوة تبليغية إلى دين الإسلام والإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما فيه من أفكار وآراء علمية وبيانية تعين على فهم خلود الدين وشموليته، وتثير في النفس عواطف الحب والاستسلام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللقرآن الكريم وشريعته الباقية النامية الخالدة"[1].

نالت ندوة العلماء في حياته صيتاً حسناً، وشهرةً فائقةً، وقد وصل صوتها إلى جميع القارات، وتوسعت دوائرها، وتشبعت، حتى ازداد عدد خريجي دار العلوم لندوة العلماء في عهده بكثرة كاثرة، وكان يركز كثيراً على تربية الطلاب ليتحلى الطلاب بالثقافة الدينية، فيجمع الطلاب أحياناً في جامع ندوة العلماء باقتراح مني كمدير لدار العلوم، ويخطب خطباً وكلمات نابعةً من قرارة القلب، تؤثر تأثيراً كبيراً، وقد كان يتخول أساتذة دار العلوم ومدرسيها بالموعظة والنصح، لكي يكونوا نشطاء في إعداد الطلاب، وتعليمهم وتربيتهم، ولا يتغافلوا عن وظائفهم ومسئولياتهم، وكان عهده في رئاسة ندوة العلماء عهداً زاهراً، بدأت رئاسته لندوة العلماء بعد إمامنا العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وكان على طرازه، لا يأخذ من الرواتب

---

[1] تقديم الكتاب ٣١ – ٣٣، طبع دار القلم.

المادية شيئاً، غير أنه وقف حياته كلها لندوة العلماء وأعمالها، وكان يزهد في حطام الدنيا، وكان مثالاً للسلف الصالح، وكان يقضي حياةً نموذجيةً بسيطةً حتى جاءه الأجل المحتوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وحينما انتشر نعي وفاته سارع الناس إلى رحاب ندوة العلماء، وقررت صلاة الجنازة عليه بعد صلاة التراويح، فجاء محبوه وتلامذته وعامة الناس للحضور في صلاة الجنازة، وتم أداء صلاة الجنازة في الساعة العاشرة والنصف ليلاً بإمامة كاتب هذه السطور، ثم نُقل جثمانه إلى زاوية الشيخ علم الله الحسني وصُليت عليه صلاة الجنازة الأخرى صباحاً في الساعة الثامنة، ثم وري جسده في القبر: على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه بعض انطباعاتي حول أستاذنا وفقيدنا، وتعلن أسرة المجلة أن عدداً ممتازاً للمجلة حول أعمال وإنجازات الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي سيصدر بإذن الله في مدة قريبة، وقد صدق الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله

إن الزمان بمثله لبخيل

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ذهب الذين أحبهم ،
وبقيت مثل السيف فرداً

سوف لا أتناسى ذلك اليوم الأغر الذي تمت فيه زيارتي الأولى لسعادة العلامة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رحمه الله ، وذلك في أحد أيام العام الحادي والخمسين من القرن الميلادي المنصرم ، يوم كنت قد حضرت دار العلوم لندوة العلماء ، بأمر من والدي الجليل رئيس ومحدث الجامعة الإسلامية مفتاح العلوم في بلدة مئو بمديرية أعظم جراه ، وكان سماحة العلامة الكبير الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوي عائداً من رحلته العلمية والدينية والأدبية من مصر والسودان ، وعدد من الدول العربية بعد إنجاز رحلاته العلمية والدعوية والتربوية ، وعلم سماحته بوجودي في دار العلوم لندوة العلماء ، فأشار علي أن أحضر عنده في اليوم الأول من العام الدراسي ، وأتقدم إليه بطلبي للدراسة في دار العلوم لندوة العلماء.

وهكذا حضرتُ في الأسبوع الأول من افتتاح دار العلوم التعليمي ، وأديت امتحان السنة الأولى للتخصص في الأدب العربي ، وأكرمني الله بالنجاح بالدرجة الأولى ، فكان اسمي مسجلاً في دفتر الحضور في الصف في السطر الأول ، وكنا نحن أربعة زملاء في السنة الأولى ، وانتهت السنتان بسرعة ، وقدَّر الله لي الالتحاق بمرحلة التكميل (الأدب العربي) ، ولم تكن هذه المرحلة لدراسة علوم الأدب

العربي وتاريخه فحسب، بل كانت ذات مسئولية لتدريس كتب بدائية للأدب العربي للطلاب الوافدين الجدد في المراحل الابتدائية التي مروا بها في مدارسهم وكتاتيبهم، وفي أماكنهم التي كانوا يعيشون فيها.

من هنا كانت صلتي بسعادة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي وطيدةً، اتصلت به أولاً كطالب علم في السنة الأولى للتخصص في الأدب العربي، ثم مستشيراً في كثير من الشئون العلمية والدينية، ثم مساعداً له في الأمور الإدارية والصحفية والعلمية، ولما تم اقتراح إصدار صحيفة الرائد لتدريب الطلاب على الكتابة العربية، فكان ذلك الأمر سراً، لا يعرفه سوى أنا والشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وجرت الأعمال الإدارية للصحافة بكل سرية، ولما طبعت النسخة الأولى للصحيفة، كان ذلك مفاجأةً سارةً للجميع، وسرَّ بذلك سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوي رحمه الله، وجميع من كان معه في ندوة العلماء، فشجَّعنا على استمرارية هذا العمل، وإيصاله إلى المستوى العالي الرفيع، والحمد لله على أني التحقت بهذا العمل من أول عدد، وبدأت أكتب كلمة الرائد في الصحيفة، كما كانت طباعة هذه الصحيفة تحت إشرافي في مطبعة ندوة العلماء، حيث تُطبع الكتب العلمية والدينية والأدبية للإمام الندوي رحمه الله تعالى وغيره من العلماء.

وفي نفس السنة التي صدرت فيها صحيفة الرائد أنشي المجمع الإسلامي العلمي، وهو عام ١٩٥٩م، وكانت فكرة إنشاء هذه الأكاديمية للإمام السيد أبي الحسن على الحسني الندوي، وكان أساس ذلك مقال الإمام الندوي: ردة ولا أبا بكر لها، فإن الإمام الندوي قد أثار في هذا المقال فكرة مقاومة الردة الفكرية التي تنشأ

رويداً رويداً في الشباب المسلم، حتى إنهم فقدوا ثقتهم بالإسلام، ويعتبرون الإسلام كالديانات الماضية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، قدم الإمام الندوي هذه الفكرة أمام المثقفين والعلماء، فلبوا هذه الفكرة، واعتبروها حاجة الساعة، وتم تخطيط هذا المجمع الإسلامي العلمي ونشر كتيبات دينية وعلمية تشرح أصول الإسلام، وتعيد ثقة الشباب المسلم بالإسلام من جديد، في أربع لغات: العربية والأردية والهندية والإنجليزية، وكان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي أكبر مساعد من أول يوم لهذا الغرس، بل انتخب الإمام الندوي رئيساً لهذا المجمع، وعُيّن الشيخ محمد الرابع أميناً عاماً له، وقد ازدهر المجمع زمن أمانته العامة ازدهاراً كبيراً، وانتخب له أعضاء ورجال، وكنت كذلك من أعضائه، فأسندت إلى جميع الأعضاء المسئوليات، وإنهم أنجزوا هذه المسئوليات بكل أمانة، حتى صدرت جميع مؤلفات الإمام الندوي من المجمع الإسلامي العلمي، ومؤلفات كُتاب آخرين، وبعد وفاة الإمام الندوي انتخب الشيخ محمد الرابع الحسني رئيساً للمجمع، فصدرت كتب ومؤلفات علمية، وعين بعض الباحثين الجدد للدراسات الإسلامية، فحققوا وألفوا كتباً قيمةً، حتى بلغ عدد مؤلفاته الآن إلى أربع مائة مؤلَّف، والحمد لله على ذلك.

فكرة هيئة التعليم الديني للناشئة المسلمة في الهند كانت من الموضوعات الأساسية، التي شغلت بال كثير من الناس، ذلك لأن بيئة الهند بعد تحريرها أصبحت مسمومةً بسبب البذور التي بُذرت من الطائفة الهندوسية، وجرى تعديل وتغيير في المقررات الدراسية الحكومية في المدارس الرسمية، فكان هذا مبعث قلق كبير، فقام

القاضي عديل أحمد العباسي من مديرية بستي، وشاور كبار العلماء والمثقفين في هذا الشأن، حتى اتفقوا على إنشاء هيئة التعليم الديني على مستوى ولاية أترابراديش، فجرت هذه النشاطات الدينية تحت رئاسة الإمام الندوي، وانتخب الشيخ محمد الرابع الحسني عضواً لها، وما زال يحضر مجالسها ودوراتها، حتى جعله الله تعالى رئيساً للهيئة، فجعل يرشد هذه المسيرة التعليمية بكل أمانة ودقة، وقد رأس كثيراً من المؤتمرات، وقدم فيها خطبه الرئاسية، وقد جمعت هذه الخطب في مجموعة كتاب، قام بترتيبها البروفيسور مسعود الحسن العثماني (سكرتير هيئة التعليم الديني حالياً)، ومن فضل الله تعالى على أني كنت عضواً منذ بداية الهيئة، وبعد وفاة الإمام الندوي أصبحت نائب رئيس للهيئة، وهذه الهيئة تعمل أعمالها، وتستمر في فعالياتها، وقد أصدرت سلسلةً من الكتب للمدارس البدائية من روضة الأطفال إلى الصف الخامس، وهي تدرس في كتاتيب الهيئة المنبثة في مدن وقرى أترابراديش، واختار المثقفون هذا المنهج نظراً إلى فوائده الكثيرة، فما من كُتاب يوجد الآن في مناطق الهند، إلا وله علاقة مباشرة أو بواسطة بهذه الهيئة، قدَّر الله تعالى لها الاستمرارية والقبول.

أقامت ندوة العلماء المهرجان التعليمي على مرور ٨٥/ عاماً منذ إنشائها في الفترة ما بين ٢٥ — ٢٨ شوال ١٣٩٥هـ الموافق ٣١ أكتوبر ١ — ٣ نوفمبر ١٩٧٥م في رحاب ندوة العلماء، ونال هذا المهرجان إقبالاً عظيماً من المهتمين بالفكر الإسلامي والمشتغلين بالتربية الإسلامية، إن هذا المهرجان كان يهدف إلى مغزى عميق في مجال التعليم والتربية للفكر الإسلامي، ويرمي إلى وضع نظام جديد للتعليم في سائر الأقطار والدول الإسلامية، ذلك النظام التعليمي الذي يتولى الجمع بين

الثقافتين الإسلامية والعصرية، ويوفق بينهما بغاية من الدقة والانسجام والحكمة، الأمر الذي تبنته ندوة العلماء من أول يومها.

بدأ المهرجان في موعده المحدد بحضور وفود العالم الإسلامي والعربي التي بلغ عدد أعضائها ٦٥/ عضواً من ١٥/ دولة، وقد كان هؤلاء الأعضاء ذوي خبرة واختصاص في موضوع التعليم والتربية، واستمر المهرجان أربعة أيام ببرامجه الحافلة الهادفة، وانتهى بنجاح — والحمد لله — وأمل مشرق لمستقبل تعليمي لامع، وكان في إنجاح هذا المهرجان التعليمي نصيب الأسد للشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، فإن جميع أعمال هذا المهرجان كانت تحت إشراف شيخنا رحمه الله، فإنه هو الذي اقترح لطباعة بعض الرسائل العلمية والمؤلفات الفكرية بهذه المناسبة، وقد أصدر عدداً خاصاً لصحيفة الرائد بندوة العلماء وأقسامها وشعبها، ورجالها وأبرز خريجيها، وقام بإدارة جميع الجلسات بالعربية، وقد شرف المهرجان شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم وكثير من مشايخ العالم العربي، وأبدوا انطباعاتهم الجيدة عن هذا المؤتمر.

إن أكثر أعمال ونشاطات الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي خلال هذه المدة المديدة كانت باللغة العربية، وقد عُيّن أستاذاً للعربية في بداية الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي، ومنذ ذلك الحين جعل يدرِّس اللغة العربية والأدب العربي نثراً وشعراً، وكانت جهوده في صحافة أدب الأطفال بإصدار صحيفة الرائد، وقد لعبت هذه الصحيفة دوراً بارزاً في نشر اللغة العربية في الجاليات الناشئة، وقد صدرت له كتب ومؤلفات بالعربية أمثال: منثورات من أدب العرب، ومعلم الإنشاء (الجزء الثالث) والأدب العربي بين عرض ونقد، ومختار الشعر

العربي في جزئين، وقاد حركة رابطة الأدب الإسلامي إلى مدة طويلة، وظل متصلاً بها منذ أول يومها، فتقديراً لهذه الجهود الأدبية أُكرم بجائزة رئيس جمهورية الهند عام ١٩٨٢م، ونال صيتاً حسناً على المستوى القومي والعالمي في الأدب والبلاغة والنقد.

أُسندت إلى الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي مسئولية إدارة ندوة العلماء عام ١٩٩٣م، وقد كنت مساعد المدير (مشرفاً إدارياً) لدار العلوم نحو سنتين وثلاثة شهور، زمن إدارة الشيخ محب الله اللاري الندوي، وذلك لأنه قد انهارت صحته، فتم انتخابي كمشرف إداري لدار العلوم، وحينما أصبح الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي مديراً لدار العلوم لندوة العلماء، وكان منصب عميد كلية اللغة العربية شاغراً، فانتخبتُ له بأمر من الإمام الندوي رحمه الله تعالى، وكنت أثناء ذلك أساعد الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي في الأعمال الإدارية والشئون التعليمية، وظل الشيخ على هذا مواظباً على العمل إلى وفاة الإمام الندوي، والجدير بالذكر أن مؤتمر العلماء المسلمين للنظر في قضايا الدعوة الإسلامية عُقدت زمن إدارته لدار العلوم لندوة العلماء في الفترة ما بين ١٢ – ١٣ رجب ١٤١٨هـ، الموافق ١٢ – ١٣ نوفمبر ١٩٩٧م، وكان مؤتمراً كبيراً، شرَّفه إمام الحرم الشيخ محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله تعالى، وإمام وخطيب المسجد الأقصى الشيخ محمود الصيام، وكانت محاور المؤتمر على ما يأتي:

١. النظر في المذاهب الدينية المنحرفة وجهودها المتزايدة اليوم
٢. النظر في جهود النحلة القاديانية المستورة منها والظاهرة، ومدى تأثيرها على الغافلين من المسلمين والبحث في طرق صدها
٣. النظر في التخلف الشائن للمسلمين في المجالين العلمي والديني،

والبحث في الحل المناسب لتدارك هذا التخلف

٤. النظر في قضايا المسلمين الدينية والثقافية في البلدان غير الإسلامية والبحث في طرق معالجتها النافعة

٥. البحث في المنهج الأفضل للأعمال الدعوية والتربوية في الأوضاع الراهنة

نالت الدعوة استجابةً مخلصةً قويةً من جميع الجهات العلمية والدعوية والفكرية، وعقد المؤتمر، وحضر المندوبون من العالم الإسلامي، وقدم كلمة ترحيب وتحية مدير دار العلوم لندوة العلماء آنذاك الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، ومن أبرز عناصر هذه الكلمة: ندوة العلماء في مواجهة الحركات الهدامة، خطورة فتنة القاديانية، استعراض الأوضاع من واجباتنا، لا شك أن هذا المؤتمر من الأعمال الدينية الذهبية زمن إدارة الشيخ محمد الرابع لدار العلوم لندوة العلماء، فالفضل يرجع إليه بعد الله تعالى وجهود الإمام الندوي رحمه الله.

انتقل إلى رحمة الله تعالى إمامنا وشيخنا السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي في ٣١/ دسمبر ١٩٩٩م، فألمت مصيبة كبرى بالعالم الإسلامي، وصار الجو حزيناً، تبكي جدران ندوة العلماء حزناً وكمداً، وفور ما سمعنا النبأ ذهبنا إلى زاوية الشيخ علم الله الحسني وصلينا صلاة الجنازة عليه بدموع ساخنة، وألقينا على قبره التراب بعواطف مكلومة، ولم يمض يوم أو يومان، إذ عقد المجلس التنفيذي لندوة العلماء جلسةً طارئةً لتعيين رئيس لندوة العلماء تحت رئاسة الدكتور السيد عبد الله عباس الندوي رحمه الله، فوافق جميع أعضاء الأمانة العامة لندوة العلماء على اسم الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رئيساً لها، وكان هذا الانتخاب مباركاً، ومتفائلاً، استبشر به

جميع الناس على شتى المستويات، وظل الشيخ على هذا المنصب حوالي ٢٣ عاماً، كما انتخبت كمدير لدار العلوم لندوة العلماء في نفس الجلسة، وشكرت على هذه النعمة، ودعوت الله أن لا يكون هناك إخلال بالمسئولية وتقصير في أداء الواجب.

استمرت نشاطات ندوة العلماء تحت رئاسة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي بكل هدوء، وقد أصدرت مجلة البعث الإسلامي عدداً ممتازاً حول سماحة العلامة الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي، وكان عنوان مقال الشيخ محمد الرابع الحسني: رحم الله شيخنا أبا الحسن، كما كتب للعدد الخاص لصحيفة الرائد مقالاً بعنوان: وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر، وكان كلا العددين حافلين بالمقالات العلمية والانطباعية ورسائل التعازي القلبية.

وقد وفقني الله تعالى خلال هذه المدة الطويلة للاجتماع معه مرةً أو مرتين كل يوم وليلة في مكتبه أو في دار الضيافة لندوة العلماء، فكنا نتشاور في كل دقيق وجليل حول ندوة العلماء وتنشيط برامجها التعليمية والإدارية والدعوية، ولم نفارقه إلا إذا كان سفري إلى مكان، أو هو سافر إلى أي جهة، وحق لنا أن ننشد بهذه المناسبة قول الشاعر متمم بن نويرة اليربوعي:

وكنا كندماني جذيمة حقبةً
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وكان دأب الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي أنه إذا وُجهت إليه دعوة للمؤتمر، وكان هو مشغولاً في أعمال ندوة العلماء أرسلني إليه

كنائب عنه، هذا ما وقع كثيراً، فامتثلت أمره، وذهبت إلى المؤتمر وشاركت فيه وألقيت فيه كلمةً نيابةً عنه بحمد الله وتوفيقه، أما ندوات رابطة الأدب الإسلامي في شبه القارة الهندية فلا نعرف أني تغيبت عن أي ندوة من ندواتها السنوية، حينما عُقدت أول ندوة أدبية لرابطة الأدب الإسلامي عام ١٩٨١م في رحاب ندوة العلماء، وكانت هي بذرة أولى لإنشاء الرابطة شاركت فيها، وساهمت في تنشيط فعالياتها، حتى انتخبت عضواً لمجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وقد سافرت مع الشيخ السيد محمد الرابع الحسني إلى القاهرة وتركيا والبلدان العربية للحضور في الندوات الأدبية وهيئتها العامة.

وفي عام ٢٠٠٥م تلقيت أنا والشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي دعوةً للحضور في حفل منح جائزة نائف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، فاستجابةً للدعوة سافرنا إلى المدينة المنورة، حيث تشرفنا بالحضور في حفل منح الجوائز في دورتها الأولى، في قاعة فندق مريديان بالمدينة المنورة، وبدئ البرنامج بتلاوة من القرآن الكريم، وتلته كلمة سمو الأمير الملكي نائف بن عبد العزيز راعي الجائزة، وتم منح الجوائز للفائزين الخمسة: اثنين من الذكور وثلاث من الإناث، وكل جائزة تمثلت في شهادة وميدالية ومبلغ وجيه من النقود، وكانت موضوعات الجائزة من السنة النبوية: عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان (دراسة حديثية فقهية)، وكان هذا السفر مبعث خير كثير، حيث سلمنا على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في الروضة المطهرة، ثم سعدنا بالعمرة وزيارة بيت الله الحرام.

هذا غيض من فيض تلك العلاقات التي تمتد على خمسة وسبعين عاماً، وإذا ذكرت كل ما كان من أحوال وأمور دارت بيني وبينه خلال

هذه المدة المديدة لاستغرق ذلك وقتاً، وغطى حجم كتاب مستقل، فأكتفي بهذه الكلمات، وندعو الله أن يغفر له زلاته، ويرفع درجاته، ويسكنه فسيح جناته ويلهم الجميع الصبر والسلوان، (وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ. ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعونَ. أُولَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ).

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الصديق الأثير
الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى(*)

إنا لله وإنا إليه راجعون!

إنها مفاجأة أليمة تتصدع بها القلوب، وتخرس منها الألسن، ولا نجد من الكلمات ما نعبر به عن الأسى والحزن البالغين بوفاة صديقنا الأثير الأستاذ محمد الحسني (رحمه الله تعالى) رئيس تحرير المجلة، من غير مرض مسبق طال به، فقد كنا نعيش حسب ما تعودنا، وكل شيء على حاله وما كان يخطر بالبال أنه يفارقنا، ويلبي نداء الرفيق الأعلى فجاءة، ويتركنا في حيرة وتيه وظلام.

أصبح في ١٨ رجب ١٣٩٩هـ (المصادف ١٣ يونيو١٩٧٩م) يوم الأربعاء كعادته، مشغولاً بتلاوة القرآن وما يتلوها من فطور ومطالعة الجرائد والاستماع إلى الأنباء ثم التعليق عليها، واشتكى بعد ساعة ألماً خفيفاً في المعدة من غير أن يهمه ذلك، ولكنه ظل يتزايد، ورغم العلاج السريع والاهتمام بالمعالجة لم يكتب له الشفاء، ولحق بالرفيق الأعلى مساء ذلك اليوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

تحققت مشيئة الله سبحانه وتعالى في أخينا الحبيب الأستاذ محمد الحسني رغم جميع المحاولات والتمنيات، فانتقل فجأة من الرفيق الأسفل إلى الرفيق الأعلى، معرضاً عن الدنيا ومباهجها، تاركاً أهله

(*) مجلة البعث الإسلامي، رمضان المبارك ١٣٩٩هـ.

وإخوته وكباره وصغاره كلهم في حيرة، وفي قلق، يعتصر الأسى قلوبهم، ويملؤ الحزن نفوسهم، ويهز الألم كيانهم، ولولا الإيمان بحكمة الله، ولولا الصبر عند الصدمة مطلوب من عباد الله، لما وجد من يصبر على هذا الحادث الأليم، وما رقأت دموع في العيون، وما هدأت أعاصير الحزن والألم، ولكنه قضاء الله في الإنسان، وبلاؤه في المؤمنين، وهو الذي يقضي ويبلو، ويجزي الصابرين ويبشرهم بالرحمة والمغفرة والاهتداء، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

فارقنا الأستاذ محمد الحسني رحمه الله في ١٨ رجب ١٣٩٩هـ ليلة الخميس (١٣ حزيران ١٩٧٩م) عقب مرض قليل لم يدم إلا ساعات قليلة، وإنما هو الم خفيف في المعدة، بدأ ضحى يوم الأربعاء، وظل يتزايد رغم المعالجات والمراجعات الطبية حتى وافاة الأجل عشاءاً، ولبى نداء ربه فرحاً مستبشراً مبتسماً مسروراً، وسقط شهيداً في غمار المعركة الحامية التي خاضها قبل اليوم بربع قرن تقريباً، والتحق بإخوانه الشهداء والصديقين، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

عرفت الصديق محمد الحسني منذ٢٦ سنة حينما كان يحضر دروس الحديث الشريف التي كان يلقيها المغفور له فضيلة المحدث الجليل الشيخ محمد حليم عطاء شيخ الحديث بدارالعلوم ندوة العلماء أمام طلاب الدراسات العليا، ودخل حبه في قلبي كأنه كان منه على ميعاد:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً فارغاً، فتمكنا

وكنت أراه في دروس القرآن الكريم التي كان يلقيها عمه الجليل سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي في مركز الدعوة

والتبليغ بلكناؤ، وذلك كل يوم الأحد بعد صلاة المغرب، وكان من عادتنا أننا كنا نلتقي ولولعدة دقائق فقط بعد الانتهاء من الدرس، ونتبادل التحيات والأشواق، وفي خلال هذه اللقاءات بدا لي أن محمد الحسني ليس شاباً عادياً، بل إنه يتميز بتفكيرسليم، وإنه يفكر فيما لا يفكر فيه الشباب بوجه عام، وإنه يتطلع إلى مستقبل بعيد، ويدرس أحوال المسلمين في العالم الإسلامي ويتابع قضايا الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية باهتمام بالغ، ويبدي فيها آراء ه ووجهات نظره، كما يفعل كبار المفكرين وأصحاب الدعوات والفلسفات، والحقيقة أني وجدت فيه بغيتي، ورأيت أن الغرض الذي أتوخاه من دراستي ومن إقامتي في جامعة إسلامية كدار العلوم ندوة العلماء لا يتحقق إلا بمتا بعة هذا الفكرالسليم ومرافقة شاب ناهض، له قيمته في الانصراف عن سفاسف الأمور إلى معاليها، والا رتفاع إلى القمة العالية التي لا يحلم بها كثير من أصحاب المبادئ والاختصاصات، فضلاً عن شاب لا يتجاوز ١٨ سنة من عمره.

كان لتربية والده العظيم الدكتور عبد العلي الحسني (رحمه الله تعالى) ولعناية عمه الجليل به كبير تأثير في هذه الفكرة العالية التي امتاز بها عن غيره، أضف إلى ذلك أسرته الكريمة والبيئة التي عاش فيها والتي أضفت عليه لوناً جميلاً من الطموح والهمة والذكاء والجدية، وفجَّرت طا قته المكنونة الهائلة، وهنالك تطلع إلى الأفق البعيد، وفكر فيما ينهض بالمسلمين من كبوتهم وينقذ العالم الإسلامي من أصنام الجاهليات المختلفة وآلهة القوميات والوطنيات الطاغية، ونطاق الفلسفات والنظرات الضيق، إلى رحاب الإسلام ومنهجه الأصيل السليم.

هذه الفكرة الشاملة غطته من جميع النواحي واستولت عليه وما

تركته يهدأ أويترقب الفرص والمناسبات، بل إنه رأي نشر هذه الفكرة وإذاعتها إلى أقصى ما يمكن واجبه الأكبر، وأسس لهذا الغرض جمية باسم المنتدى الأدبي، وعين لها أعضاء، وكان القصد من ورائها أولاً إبلاغ الفكرة عن طريق مقالات كان يلقيها فيها أسبوعياً إلى مجموعة طيبة من الإخوة، ثم الإشعار بأهمية الواجب الذي يتطلبه منا العالم الإسلامي اليوم، وعرض على الأعضاء فكرة جمع المقالات والبحوث التي كانت تلقى في الجلسات الأسبوعية في مجموعة، ونشرها في صورة كتاب أومجلة، فرحب معظم الأعضاء بهذه الفكرة ورآها البعض الآخر أمراً مستحيلاً، لكنه لم ين ولم ييأس، وظل ينمي الفكرة ويغذيها حتى قرر، ومعه هذا العاجز، أن يصدر مجلة شهرية إسلامية باسم "البعث الإسلامي".

صدر العدر الأول من مجلة "البعث الإسلامي" في صفر ١٣٧٥هـ المصادف أكتوبر ١٩٥٥م، ولكن لا بسهولة، بل بعد أن كلف هذا العمل بذل جهودًا كبيرة، واستنفد شيئاً كثيراً من طاقتنا وهمتنا، ذلك لأ نه لم يكن أمراً يسيراً، خاصة والتسهيلات المطبعية لم تكن متوا فرة كما ينبغي، ولم تكن الأمور تسير على ما يرام، بل كانت هناك ألوان وأنواع من العقبات والعراقيل تكاد تنقلب علينا، وتثبط الهمة لولا أن الإخلاص رائده وعلوالهمة قائده، ولولا دعاء والده العظيم وعمه الكبير، وكثيرممن كا نوا معجبين بهذا العمل.

ووجد في المجلة مجالا واسعاً لدعم الحركة الإسلامية ومؤازرتها، ونشر الأفكار البناءة والآراء الصريحة وإبلاغها إلى فئات الشباب المسلم ومراكز الدعوة والحركات الدينية في العالم الإسلامي بوجه خاص، وإشعال تلك الجمرة الإيمانية التي كانت كامنةً في الرماد، ويواريها

الخوف من طواغيت الظلم والإرهاب تارة، ويفترها المغرضون والإباحيون تارة أخرى، ولكنه نادى بالثورة على جميع هذه العوامل الزائلة، واتخذ أسلوباً هجومياً يأتي على أوكار الفساد والهدم، ويقضي على اليأس الذي تسرب إلى النفوس واستقر فيها.

ما قصر في أداء هذا الواجب العظيم حتى في أصعب الحظات وأقسى الظروف، وقد خفنا بعض الأحيان عليه وعلى المجلة إذا لم يلن موقفه ولم يتنازل عن الصراحة قليلاً، إلا أنه أبى وظل صامداً في وجه كل طوفان وكل إعصار، وكل إرهاب، وما رضي بالمسالمة مع الظروف ما دام الحق معه، فضلاً عن المساومة أوالفرار عن الميدان.

هذا شأنه في كل قضية تعارض الفكرة الإسلامية النقية أوتنا ل من العقيدة الدينية أو تبرر الانسجاب عن المضمار، فكان يصب كل طاقته لتفنيدها وإحباطها، ولا يطمئن ولا يهدأ ما لم يتأكد أنه أدى واجبه، وأرضى ضميره، ولم يعد هنالك ما يطلب المزيد.

ولم يدخر وسعاً في شرح الحضارة الإسلامية وإثبات فضلها في خدمة الإنسان، ودورها في بناء السيرة الإنسانية المثلى، كما تناول الحضارة الغربية والمدنيات الزائفة بالنقد والتحليل، وأثبت زيفها وفشلها في إسعاد الحياة وتوفير الهدوء والطمأنينة إلى المجتمع الإنساني، رغم تقدمها الهائل في مجالات العلم والصناعة والتكنولوجيا، ومقالاته وافتتاحياته في هذا الموضوع خير شاهد على نظرته الواسعة وبصيرته النافذة، ومعلوماته الحديثة الأحدث.

كان ذا اطلاع واسع على آخر ما يدور في العالم المعاصر من أفكار وآراء ونظرات وفلسفات، فكان يدرسها ويتأمل فيها ويستخرج ما فيها من مواضع الضعف والضرر، ومافيها من دجل وتلبيس ضد الإسلام

وتعاليمه، فكان يرى من واجبه أن يبرز هذا التلفيقات ويشير إلى هذه السموم الفتاكة في مقالاته وبحوثه وافتتاحياته، وينبه عليها المعنيين بقضايا الإسلام خاصة، وقد أوجد لكل ذلك أسلوباً من الكتابة قوياً رصيناً، فيه الأصالة والجزالة، وفيه روح الدعوة وقوة الخطاب، جدير بأن يسمى أسلوب الدعوة الإسلاميه في العالم المعاصر.

جمع الله له بين الفكرةالإسلامية النقية والمعلومات الحديثة عن الأفكار والفلسفات التي تغزوالعالم، وتزعزع ثقة الشباب المثقف بالإسلام، وجمع له بين القلب المؤمن والعقل الواسع وبين الذكاء والورع، وبين الفقه والإيمان، وبين الأخلاق الفاضلة والسيرة المثالية، فكان شاباً عالماً، نشأ في عبادة الله، بطلا مجاهداً تولى الجهاد بقلمه الجريئ المؤمن وبكتاباته الصارخة القوية، ضد كل جاهلية بأوسع معناها.

ولأجل هذه الخصائص والسمات كان يحبه عمه الجليل سماحة الشيخ أبي الحسن الحسني الندوي، ويراه بمثابة ولده وقرة عينه وفلذة كبده وعمدة نشاطه، وقد اعتنى من أول الأمر بتربيته، وألف له كتاباً بالعربية باسم قصص النبيين، عند ما كان طفلاً، لكي يتعلم به العربية، وكل كتاب أومؤلف كان يشتغل بوضعه وتأليفه لا يفارقه الشعور فيه بأن له زاداً وغذاءاً فيه، وأنه أول من يقرؤه ويستفيد منه، وذلك هو السبب المباشر في كونه خلفاً صالحاً لعمه الجليل في كل شيء، في الفكرة، والسيرة والسلوك، وحتى في الشعور وفي الخط، فكيف لا يكون السيد محمد الحسني معقد آمال عمه الجليل ومركز نشاطه، وكيف لا يحزن بمصابه فيه ويتألم بوفاته المفاجئة.

ومن ثم لم تكن وفاته في هذه السن المبكرة، وفي عمر لا يتجاوز ٤٤ سنة. وهي سن الشباب والنشاط بوجه عام.خسارة أسرة واحدة

أومؤسسة واحدة أوبلد واحد فحسب، بل إنها خسارة العالم الإسلامي، وخسارة الفكرة الإسلامية وخسارة الأمة بأسرها، والذي رآه عن كثب واطلع على أفكاره وآرائه النقية يستطيع أن يقدر مدى أهميته وقيمة العمل الذي كان يؤديه، والمعركة التي كان يخوضها.

فقدناه في وقت كنا فيه بأشد حاجة إليه، وإلى فكرته السليمة وإلى منهجه القويم الذي خطه في مجال العمل والدعوة والصحافة الإسلامية الموضوعية، ولكن الله سبحانه أراد أن يسترد هذه الأمانة من الآن لحكمة لا يعلمها الإنسان، فلا مناص مما قدر الله ولا سبيل إلا الصبر، فصبراً يا آَل الحسن والحسين رضي الله عنها، وصبراً يا أهل الفقيد وذويه، وأصدقاء ه ومحبيه، "إنه من يتق ويصبر، فان الله لا يضيع أجر المحسنين".

اللهم تغمد الراحل الكريم بمغفرتك ورحمتك، وأسكنه فسيح جناتك ونعيمك، ووف بمنك وكرمك جزاء عمله وجهاده الموفور الكريم، وألحقنا به في أحسن منزل، وأكرم مثواه في جنات النعيم، فإنك يا رب غفور رحيم.

الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي

رجعت بي الذاكرة إلى ذلك اليوم الحزين الذي غشيت فيه سحابة حزن سوداء على العالم الإسلامي بكامله، يوم استأثرت فيه رحمة الله تعالى بشيخنا وإمامنا العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني، يوم جمعة مباركة من نهاية الأسبوع الثالث لشهر رمضان عام ١٤٢٠هـ، وكان النبأ مفاجئاً ومفجعاً للجميع، وكان يبدو كأن دقات القلب تتوقف، وكأن اللسان قد اعتراه البكم، والقلم أصيب بالجفاف، إنما هو الحزن الذي أفقد كل حركة ونشاط، وأصيب سير الكون بنوع من الجمود فتوقف لمدة، يعبر عن تألمه الشديد، ولكن قدر الله كان مقدوراً.

وهناك حادث مفاجئ آخر استبق الحادث الأول بمدة لا بأس بها، وهو حادث ارتحال صديقي الحبيب العبقري الكريم الأستاذ محمد الحسني (رحمه الله تعالى) يوم ٨/ من شهر رجب العام المنصرم ١٣٩٩هـ المصادف ١٣/ من يونيو عام ١٩٧٩م من القرن المنصرم الماضي، وقد صدرت جملة عاجلة فور وفاته بقلمي العاجز قائلاً:

"إنها مفاجأة أليمة تتصدع بها القلوب وتخترس منها الألسن، ولا نجد من كلمات نعبر بها عن الأسى والحزن البالغين على وفاة صديقنا الأثير الأستاذ محمد الحسني (رحمه الله تعالى، مؤسس مجلة البعث الإسلامي) من غير مرض مسبق طال به، فقد كنا نعيش حسب العادة وكل شيئ على حاله وما كان يخطر ببال أنه يفارقنا ويلبي نداء رفيقه

الأعلى، ويتركنا في حيرة وتيه وظلام".

لم يكن محمد الحسني شاباً عادياً، إنما كان يتميز بفكر سليم، ويفكر فيما لا يفكر فيه الشباب المسلم بوجه عام، كان يتطلع إلى مستقبل بعيد وهو في عنفوان شبابه، ويدرس أحوال المسلمين في العالم الإسلامي بوجه خاص ويتابع قضايا الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية بالاطلاع عليها باهتمام كامل ويبدي فيها آراءه ووجهات نظره، كما يفعل كبار المفكرين وأصحاب الدعوات، والباحثون عن الفلسفات الحضارية القديمة والحديثة، فوجدت فيه بغيتي وأيقنت أن الغرض الذي أتوخاه من دراستي ومن إقامتي في جامعة علمية عتيدة كجامعة دارالعلوم لندوة العلماء لا يتحقق إلا بمتابعة هذا الفكر السليم وزمالة شاب ناهض له قيمته في الانصراف عن سفاسف الأمور والارتفاع إلى القمة العالية التي لا يحلم بها كثير من أصحاب المبادئ والاختصاصات العالية فضلاً عن شاب لا يتجاوز ١٨ / سنة من عمره.

هنا نموذج قصير كمثال لفكره العالي المتزن وأدبه العالي المغبوط:

"على هذه الكرة الأرضية طائفة تحب الواقعية وتتغنى بها ولكنها تهرب من "الواقع" هروب السارق المفرور، أو تتناساه وتتجاهله كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال كلما داهمها خطر، وتظن أنها صارت في مأمن، إنها طائفة المتجددين والعصريين والمتغربين في أصح تعبير، فيهم علماء الحياة، وعلماء النفس، وعلماء الطبيعة وخبراء الحضارة وعمالقة التاريخ، ونوابغ الفن والموسيقى والأدب والبيان، والتصوير والنحت، إنهم يتلهون بكل نوع من أنواع اللهو واللعب، والعبث والفضول، واللامعقول واللامبالاة، وكل لون من ألوان الحياة و"الوجودية" و"البوهيمية" و"الهبية" وما فوقها وما دونها، وذلك بحجة الواقعية والخضوع أمام الحقائق والاعتراف بحتمية التطور والاستفادة من التجربة والاستقراء".

ويدعو إلى بناء شخصية إسلامية مستقلة فيقول:

"ندعو إلى تكوين شخصية إسلامية قوية بارزة تتجلى في دوائر الحكم كما تتجلى في دور العبادة، تتجلى في البرلمان، كما تتجلى في المسجد، وتتجلى في أوساط التربية وأجهزة الإعلام، كما تتجلى في كلام الواعظين، وجهاد المصلحين وجهود الدعاة والعاملين.

وحينئذ يكون العالم الإسلامي كله كتلةً واحدةً ذات شخصية إسلامية مستقلة لا يصنع مؤسسةً، ولا يقيم إدارةً، ولا يقف موقفاً إلا وهو وفيٌّ بمبدئه، حريص على شخصيته، محافظ على سماته وملامحه، متمسك بأهدافه وغاياته، مسلم في السلم والحرب، مسلم في الغنى والفقر، مسلم في الحكم والإدارة، مسلم في الإعلام والتربية، مسلم في الصناعة والعلم، مسلم في السياحة والفن".

ولكن هناك حادثاً آخر مباغتاً فُجعنا به صباح يوم الأربعاء التاسع من شهر جمادى الأخرى ١٤٤٠هـ المصادف ١٦/ من شهر يناير ٢٠١٩ الميلادي، ذاك نبأ وفاة صديقنا الصالح الكريم الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي الذي توفي مع آخر لمحات الفجر، من غير مرض سابق إلا أنه أحس بألم في صدره وعاده الطبيب الحاذق بعد منتصف الليل وطمأن الجميع أنه لا بأس به ووصف له علاجاً، ولكنه غادر قبل ذلك إلى ربه الكريم راضياً مرضياً وترك الناس في حيرة بالغة وحزن عميق، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إن الراحل الكريم لم يكن من الشخصيات التي يعرفها الناس بأعماله العملاقة وإنجازاته الفذة فحسب، إنما كان يعيش في عزلة عن كل شهرة أو عن جميع تلك الصفات التي تعلو بالرجل إلى مكانة عالية من الصيت الحسن ويذكره الناس بألقاب عالية وأوصاف بارزة، إنما عاش كرجل خاشع متواضع وكداعية مخلص وكعالم كبير وأديب ألمعي

يحب الاستمرارية في أعماله قابعاً في ركن من غرفة المكتب أو مقر النوم.

عرفته منذ أيام دراستي في جامعة ندوة العلماء يوم كنت في مرحلة التخصص في الأدب العربي في عام ١٩٥٢م للقرن المنصرم الميلادي، ولكنه لما عاد إلى الجامعة الندوية كأستاذ للآداب العربية وتاريخها في عام ١٩٧٣م وحصلت لي معه زمالة في الدراسات العربية وفي مجال الصحافة العربية، وتسنت له الكتابة باللغة العربية الحديثة الفصيحة حول قضايا العالم بألوانها والسياسات الانتهازية التي تتلاعب بها الدول الكبرى والشعوب العالمية بكاملها، وتتنافس في الصناعات والتقنيات، ففضح خفاياها بكتاباته العملاقة وقلمه البليغ، وكشف عن النوايا الإجرامية التي كانت تعيشها مع دول العالم الثالث، ذاك أنه كان يدرس الأحوال السياسية والاقتصادية التي كانت تتجدد مع الأغراض الشخصية والظروف المتجددة من خلال الغايات المادية الاستعمارية التي كانت تنصب على فصل الدين عن السياسة، أو بتعبير آخر إقامة الحواجز بين الشرق والغرب، واعتبار أنفسهم أساتذة الشعوب الشرقية المتخلفة التي لا تكاد تخرج من أوكارها الضيقة ومن تخلفها الصناعي والاقتصادي من غير خضوعه أمام الغرب المادي، كالمتسولين الفقراء والعبيد الأذلاء.

انظروا كيف يشير إلى هذه النقطة السرّية:

"كانت فترة قرن كامل لاتصال الغرب بالشرق، وهي الفترة التي أتيحت فيها للعلماء والمفكرين والساسة في الغرب فرصة للاختلاط، ومتابعة واقع الحياة ودراسة التراث العلمي، والثروة الفكرية للمسلمين، تكفي لإزالة الأباطيل والشبهات التي كانت قد نفثتها أقلام المستشرقين والمبشرين الذين صنعوا التاريخ وزوروه لخدمة المصالح الاستعمارية في بداية القرن العشرين، ولكن الذي يتابع الحركة العلمية فيما يتصل بالشرق الإسلامي، وبالمواضيع الإسلامية، يصل إلى نتيجة حتمية وحيدة وهي أن

الغرب لا يزال يعيش في أفكار اختلقها المبشرون الصليبيون والمستشرقون الحاقدون قبل اتصالهم بالشرق، وأن الكتاب المعاصرين يسيرون على نفس الخط التبشيري الاستعماري الحاقد بالنسبة للإسلام والمسلمين.

يرجع ذلك إلى فكرة تكونت في ظروف فرضها الاستعمار الغربي على الشرق، فقد كان قادة الفكر في الغرب يعتقدون أن استيلاءهم على الشرق لا يدوم إذا لم تصحبه حملة فكرية عامة لاقتلاع ارتباط الجيل المعاصر والأجيال القادمة بماضيها الذي تعتبره الماضي المجيد، وتحاول استرداد شرفه التليد، ولتتلاءم طبيعتها بطبيعة الحياة التي فرضها عليها الاستعمار، لا بد من قطع الصلة القائمة بتاريخها وبأمجادها وتجريدها عن خصائصها القومية والخلقية وصهرها في بوتقة جديدة"[1].

ويتألم عن افتراق المسلمين في تمثيل الإسلام وتعاليمه وانحياز كل جماعة أو منظمة إلى جانب متعين خاص بها دون التركيز على اتحاد الغاية وضم الصوت إلى الصوت، الأمر الذي أضر بالدعوة الإسلامية وفرّق الأمة بين جماعات وفرق شتى، حتى استخف وزن الوسطية التي يدعو إليها الإسلام، وفقدت الكلمة قيمتها في عيون الناس، وساء ظنهم بمن يقومون بالعمل الدعوي أو بتمثيل الدين الذي أكمله الله سبحانه وصرح بذلك مدوياً مجلجلاً (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً).

يقول في مناسبة ولكنه يتألم بهذا التفرق والشتات بين العلماء والدعاة ويعتبر ذلك مشكلة المسلمين في العالم المعاصر، يقول:

" ليست مشكلة المسلمين اليوم أن الإسلام غير ممثَّل في حياتهم، ولا توجد نماذج للتعاليم الإسلامية، وإنما المشكلة هي أن هناك نماذج،

---

[1] البعث الإسلامي، العدد/ ٢٤ لعام ١٩٨٠م.

وهناك جهوداً لتمثيل جوانب مختلفة من التعاليم الإسلامية، لكنها متفرقة، وإذا وجدت فهي غير متناسبة، فيوجد الدعاة إلى عقيدة صافية، ومتمسكون بها، وتوجد عناية بالعبادات والأخلاق، وعناية بالدعوة إلى الإسلام، وتوجد أفراد وجماعات تقوم بالتضحية والفداء في سبيل الإسلام، وكل جانب من جوانب الحياة الإسلامية ممثَّلٌ في الحياة المعاصرة، ولكن هذه الجهود مفرقة وملتزمة بجوانبها الخاصة التزاماً يمنعها من العناية بجوانب أخرى للعمل، وقد يقتنع فريق بعمله والتزامه بجانبه بطريق لا يجد وقتاً ولا داعياً إلى التعرُّف على النشاط الإسلامي في الجانب الآخر والإسهام فيه، فإذا كان هذا الفريق مثلاً مهتمّاً بالتعليم فلا يهمه أن وقعت ردّة في منطقة مجاورة له، أو في أي جزء من أقطار العالم، وإن كان مهتماً بالدعوة فلا يهمه إذا انتشر الجهل والفقر في المسلمين فيصبحون عالة على غيرهم، وإذا كان مشغولاً بخدمة الناس، والعناية بأعمال الإغاثة، وحل مشاكل اجتماعية واقتصادية فلا تلتفت عنايته إلى جانب إصلاح النفس وتوثيق الصلة مع الله، والتخلُّق بالأخلاق الإسلامية، وبأعمال الدعوة، وبالجهاد وردّ الظلم في غير مجتمعه الذي يعيش فيه، فتبقى كثير من المسائل والمشاكل والأمراض الاجتماعية والانفرادية غير معالجة، لأنه ليس هناك من يهتمُّ بها.

فإن سبب خيبة الجهود الدعوية والإصلاحية والحركات الإسلامية في هذا العصر هو التقصير في تمثيل الإسلام الكامل، والتفرُّق في العمل".

ويحسن بنا أن نسجل أخيراً ما كان يراه نحو الصراع بين الدول والشعوب في العالم، وذلك في آخر ما كتبه من مقال نُشر في صحيفة الرائد (التي رأسها إلى آخر حياته)، تحدث فيه عن قوة الحكومات التي تدعي بأن سياستها إنما تقوم على أساس الجمهورية ولكنها لا تراعي

هذه الدعوى، وتعامل مع شعوبها معاملة الحكومات المستبدة، يقول:

" تحرر الشرق بكامله تقريباً من براثن الاستعمار وتولى أبناء الحكم، وتركزت السلطة في أيديهم لرسم سياسة البلاد الداخلية والخارجية، ولكن الاتجاه الفكري في هذه الدول المتحررة وموقف التكلتلات السياسية لا يزال يتمسك بالطبيعة التي كانت تسود قبل الحرية، فلا يوجد الاشتراك في عمل بناء الوطن، والمساهمة الشعبية في الاحتفاظ بسلامة البلاد وتوحيدها وتمكينها من تحقيق الاعتماد على النفس، لأنها تواجه صراعاً داخلياً بين الأحزاب السياسية، أو نضالاً بين المواطنين المسالمين والسلطة المسلحة للحكومة.

إن هذا الوضع يسود في معظم البلاد النامية، أو البلاد التي تسلمت زمام الأمور حديثاً فيوجد هذا الصراع في الدول العربية والإسلامية أيضاً التي كانت تحت الاستعمار الأجنبي بما فيها الدول ذات الأغلبية الإسلامية في إفريقيا".

هذا غيض من فيض ذلك العمل والفكر الإسلامي المعتدل الذي عاشه فقيدنا رحمه الله تعالى، فقد كان يمثل نماذج خير الأمة الوسط، الأمة التي تحدث عنها ربنا العظيم في كتابه الخالد فقال: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ".

رحم الله تعالى أخانا الكريم وتغمده بجوائز الرحمة والمغفرة ويسكنه فسيح جناته ويسد بفضله العميم الفراغ الذي نشأ برحلته إلى دار الآخرة ويلهم الجميع الصبر على المصاب.(ومَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ).والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
كلمة المؤلف	٥
الباب الأول: الأدب والإسلام	
أدب الدعاء والذكر والرسول عليه الصلاة والسلام	٩
الأدب والإيمان: نعمة من الله على الإنسان	٢١
الدعوة والأدب صنوان متعاضدان	٢٨
الأدب الإسلامى الرائد ووظيفته في بناء الإنسان	٣٠
الفكر الإسلامى وصلته بالأدب والبيان!	٣٦
أدب الحوار، في خدمة الدعوة	٤٠
الأدب الإسلامى، حاجته ودوره في الحياة!	٤٦
الأدب الأثيم	٥١
الأدب والإسلام في ميزان الواقع والتاريخ (١)	٥٦
الأدب والإسلام في ميزان الواقع والتاريخ (٢)	٦٧
أدب النثر العربى بعد الحرب العالمية	٧٧
الباب الثاني: ساعة مع أعلام الشعر والأدب	
الشَّاعِرُ الّذي أحبَبتُه (١)	٩٣
الشَّاعِرُ الّذي أحبَبتُه (٢)	٩٩
النابغة الجعدي: أسن شاعر مخضرمى في قصيدته الرائية	١٠٤

قدامة بن جعفر وخدماته النقدية	١١٣
ابن قتيبة الدينوري في "أدب الكاتب"	١٢٥
ابن المقفع. وحياته الأدبية	١٣٠
مع الشاعر وليد الاعظمي في ديوانه "الزوابع"	١٣٦
علي بن الجهم وشعره	١٤١
السيد جمَال الدّين الأفغاني (١)	١٤٩
السيد جمَال الدّين الأفغاني (٢)	١٥٤
الشاعر محمّد اقبال يناجي العرب	١٥٧
الدكتور محمد إقبال : شاعر الضمير والإيمان	١٦٢
السيد مصْطفى لطفى المنفلوطى أحد أعلام الأدب العربى الحديث	١٦٩
العلاّمة الطبيب السيد عبدالحى الحسنى : مؤرخا وأديبا	١٧٣
فقيد الأمة الإسلامية الإمام السيد أبو الحسن على الحسنى الندوي	١٧٨
الإمام السيد أبو الحسن على الحسنى الندوي في ضوء أفكاره النيرة	١٨٤
الشيخ السيد محمد الرابع الحسنى الندوي، هيهات لا يأتى الزمان بمثله!	١٨٩
ذهب الذين أحبهم، وبقيت مثل السيف فردًا	١٩٥
الصديق الأثير الأستاذ محمد الحسنى رحمه الله تعالى	٢٠٥
الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسنى الندوي	٢١٢
فهرس الكتاب	٢١٩